الدَّعْوَة
على منهاج النبوة

بحقوق الطبع محفوظة للمؤسسة

الطبعة الأولى للمجموع

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٦/٨/١١١٣)

رقم التصنيف	٢٤٠
المؤلف ومن هو في حكمه	محمد بهجة الأثري، وهبه الزحيلي
	عبد الحليم عويس
عنوان المصنف	الدعوة على منهاج النبوه
الموضوع الرئيسي	١- الديانات
	٢- العقيدة الإسلامية
رقم الإيداع	(١٩٩٦/٨/١١١٣)
بيانات النشر	عمان: دار البشير

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار البشير
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

الدَّعْوَة

على منهاج النبوة

دَعْوَة التوحيد والسّنة

العَلَّامَة محمد بهجة الأثري

مُجَدِّد الدِّين في القرن الثاني عشر

د. وَهْبَة الزُّحَيْلي

أثر التجديد في الجزائر

د. عَبْد الحَليم عُويس

دَار البَشِير

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألاّ إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: ففي هذا العصر الذي يسّر الله فيه الاتجاه إلى الدين في كل مكان، تدخّل الشيطان والهوى فتغلّبت البِدعة على السُّنّة، وتغلّب الفكر على الوحي، وتغلّب الظن والعاطفة على اليقين في تديّن أكثر المسلمين، واتخذ الدين والدعوة والمسجد مطايا لتحقيق أغراض شخصية أو سياسية أو حزبيّة أو تجارية أو طائفية. ولذلك وجب التذكير بمنهج النبوّة في الدعوة إلى الله على بصيرة بلا تعصب ولا تحزّب لبشر غير محمد

عبدالله ورسوله ﷺ وعلى آله.

واختيرت الرّسائل الثلاث التالية أداء لهذا الواجب لتقدم نماذج متعددة من أماكن متعددة ولكتّاب عدّة بأساليب متعددة من عالم الإسلام.

نسأل الله أن يردنا ويرد المسلمين إلى دينه ردّاً جميلاً وأن يقدّر في عصرنا هيمنة علم الوحي على الفكر، واليقين على الظن والعاطفة، وأن تتطهر الدعوة والمسجد والدين من الدعايات الحزبية والانتخابية والشخصية، وأن يكون قصد المسلم من دعوته وجهاده: أن تكون كلمة الله هي العليا. اللهم صلّ وسلِّم وبارك على محمد وآل محمد.

الناشر

١ ـ الرسالة الأولى

دَعْوَة التوحيد والسنة

العلامة محمد بهجة الأثري

عضو المجمع العلمي العراقي
والمصري والسوري والمغربي

بغداد ـ العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله وحدَهُ، بيده ناصيتي، وله الأمرُ كلُّهُ. . . والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحابته ومن والاه.

أمّا بعدُ،

فإن عنوان الأسماء العالية في التاريخ العربي الإسلامي الحديث، كالشمس يُذْكَرُ غير ملقّب، لأنّه يسمو على التلقيب بالألقاب، والتحلية بالنّعوت.

إنّه لا يعرف بها، ولكن هي تعرف به.
وإنّ حِلية مثله لفي عَطَلِه.
والجواهرُ تُذكرُ أسماءً مجرّدة، ولا توصف؛ لأنّ معانيها هي أوصافها.

ويقـال «الشّمسُ» و«القمرُ» ولا يُحَلَّيان، لأنّ حليتهما في كمالهما وتمامهما.

ما كلام الأنــامِ في الــشّــمس، إلّا
أنّــهــا الــشــمسُ، ليس فيهــا كلام!

وقديماً أنكرت طباع العرب أن يعرَّف المشهور في الأمْلاء، فقال قائلهم:

«قد عرفناه، وهل يخفى القمر»؟

وإنّ من الأسمــاء نكـراتٍ، مُغْـرِقـةً في التّنكير، حُلّيت بالألقاب، ورُصَّت لها ألفاظ التّفخيم والتّعظيم رصّاً سطوراً بعد سطور، لِتُعَرَّفَ فَتُعْرَفَ، فما زادتها إلا تنكيراً وضموراً وخفاءً، ومات أصحابها وما ذُكِروا.

وقــد يمــوتُ أُنــاسٌ لا تُحــسُّــهُــمُ
كأنهم من هَوانِ الخَــطْب ما وُجِـدُوا

لقد نزعت الأصالة العربية إلى التجريد، وتعلقت بالجواهر والمعاني، فسَمَّتْ عظماءها أيامَ العزّة بأسمائهم المجرّدة، ولم تغرقهم بالألقاب.

ولمّا استحالت بعضُ الطِّباع، أيّامَ تغلّب البُغاة الطُّغاة على ديار العرب والإسلام، استحلى المستدرَجُون المستكينون ما حلّاهم به المسيطرون من الألقاب البراقة، واستعذبوا ما أذاقوهم من حلاوات الرُّتَب المُعْلِيةِ المُدْنِية.

وفي سِمات أيّام العزّة جمالٌ وجلالٌ فطريّان، عليهما من الصّدق والصّفاء رونق ورُواء، وبالمعاني تشاد المعالي ويرفع البنيان.

فلا عَلَيَّ أن أُسمّي «محمد بن عبدالوهاب» ولا ألقّبه.

إنه معنى كريم.. استقرّ في الضّمائر، وليس جسداً تطوف حوله الأجساد. في حروف اسمه القلائل الصِّغار، خِصال عبقريّة كِبار.. ائتلفتْ فأنشأتْ مزاجاً فرداً، عجيباً في أخذه وعطائه.

ذهنيّةٌ عبقريّة، في تكوينٍ سَويّ، من طِراز خارق للمألوف قياساً إلى العادة والزمان والمكان، وفي حاقِّ الجِبلَّة والتّكوين.

وقوّةٌ نفسيّة وثقى، متوثّبة ومتحدّية.. تفرض الهزيمة على

القُوَى المضادّة فرضاً، وتثبت ثباتَ طَمّاحِ الذوائب الأشمّ بوجه الأعاصير، تتناوح من عن يمينه وشماله، ومن أمامه ومن خلفه، تريد زحزحته، فترتدّ عنه وتبيد، وهو (هُوَ) غير مضار.

وقِيَمٌ خُلُقية صافية صفاءَ ألق الضّياء في يوم الصحو البهيج، ليس دونه حجاب.. ترفعت على شهوات النفس، وتحلّت بالإيثار، يصرّفها عقل دَرّاك وقلب يَقِظُ، وترفدها الرَّكانة والزَّكانة، والتصوُّرُ الشُّموليّ الذي يخرج من دائرة الفكر المحدود ليبسط أبعاده على الآفاق.

وقد يكون الإنسان صاحب ذهنيّة عبقريّة، ولكنه لا يملك القوّة النّفسيّة المتوثّبة المتحدّية. فيكون منه صاحبُ تصوّرات فكريّة، وليس صاحب قوّة فاعلة، وقد يُغْنِي في مجال الفكر، ولا يُغْنِي في مجال الفعل.

وقد يكون صاحبَ قوّة نفسيّة، ولكنّه لا يملك الذهنيّة العبقريّة التي تصرِّف القوّة على مَسار السَّداد والتّوفيق، فتتعطل قوته، فلا يأتي بأمر ذي بال.

وقد يكون صاحبَ ذهنيةّ عبقريّة وقوّة نفسيّة متوثّبة، ولكنّه

يفتقـد القِيَمَ الخلقيّة الـرفيعة، فلا تُجْديهِ خاصِّيَّتاه، أو يفتقد العقل الشّموليّ، فيحبس جهده على أفق خاص يدور في دائرته الضَّيِّقـة، محدوداً بحدودها، لا يخرج منها إلى ما وراءها من آفاق وأبعاد.. فلا يكون منه أمر كبير.

ولقد جمع الله في (محمّد بن عبدالوهّاب) هذه الخصالَ جمعـاء، متمـازجـةً متحـابّـة، ومترافدة، ليجيء منه الإنسان العظيم، الذي يصنع الصنع العظيم.

وهنا يجيء السؤال الكبير:

ما الصنع العظيم الذي صنعه (محمّد بن عبدالوهّاب)؟

الجـوابُ عن هذا السؤال الكبير، يصـوغـه واقع التاريخ وحقائقه، ولست أنا من يصوغه.

واقـع التاريخ، يقرر في صراحة ووضوح بيان أنه **الرجل الذي أيقظ العملاق العربي المسلم من سُبات في جزيرة العرب دام دهراً داهراً، وأشعره وجوده الحي الفاعل، وأعاد إليه دينه الصحيـح، ودولته العزيزة المؤمنة، ودفعه إلى الحياة الفاعلة ليعيد سيرة الصدر الأول عزائمَ وعظائمَ وفتوحاً..**

ويقرر غيرَ مُنازَع أنّه **رجل التوحيد والوحدة، والثائر الأكبر الذي رفض التفرق في الدين رفضاً حاسماً**، فلم يكن من جنس من يأتون بالدعوات ليضيفوا إلى أرقام المذاهب والطرائق المِزَقِ رقماً جديداً، يزيد العدد ويكثّره، ولكنّه أوجب إلغاءَ هذه الأرقام، ودعا لتحقيق «الرقم الفرد» وحدَهُ: الرقم الذي لا يقبل التجزئة كالجوهر الفرد، ألا وهو (الإسلام).

والإسلام، طريقة واحدة، لا تتفرّع، ولا تتعدّد.

وقد جاءت البينات كفلق الصباح بأن هذا «الرقم الفرد» هو الذي استقام به أمر العرب، وكوّن الوحدة الكبرى، والدولة العظمى وقد انضوى تحت لوائها الخفّاق أهل الأرض من كل جنس ما بين مشرقٍ للشمس ومغيب، متآخين في الله، متساوين في الحقوق، لا فضل فيها لأحد على أحد إلا بتقواه، متعاونين على بناء حضارة أخلاقيّة جديدة تجمع إلى مطالب المادة مُسْتَشْرَفات الروح.

فلمّا أُفسِد التّوحيد، وزالت الوحدة، ذهب التفرق في العقيدة بهذا المجد العظيم.. **فجاء (محمّد بن عبدالوهّاب)**

داعياً للعودة إلى الأصل الذي قام عليه ذلك المجد وعلا سمكه وعزّ وطال، وقد حقق ما أراده في جزيرة العرب، وأشاع اليقظة في العالم المسلم، وكان لدعوته في كلِّ صُقعٍ أثرٌ مشهود..

فهذا هو الصنع العظيم، الذي صنعه الرجل العظيم.

* * *

جاء (محمد بن عبدالوهّاب) على فترة من المصلحين الكبار أصحابِ الأصوات الجهيرة في الإصلاح والدعوة إلى التوحيد والوحدة، وحين ظُنَّتِ الظُّنون بالعرب وبالمسلمين، إذ اكتنف الظلام جِواءَ العالم المسلم، وانبهمت المطالع، وركدت ريح العرب في ديارهم، وتفرّقت كلمة المسلمين، فضعفوا، وهان شأنهم على الأقوياء، فطمع فيهم الطامعون من كل جنس.

وكان إشراق النور الجديد من قلب هذا الظلام، من الأرض القفرة، عجباً من العجب، ومثار دهشة الغرب خاصّةً، إذْ كانت دُوَلُه بعد عصر (الرّينصانص) والثورة الصِّناعية، تُعِدّ العُدَد، وتتآمر فيما بينها على العالم المسلم، وتتحالف للسيطرة

على ينابيع ثرواته العظيمة.. تُغْنِي بها فقرها.

وكان قد استقرّ عند هذه الدّول أن العالم المسلم قد صار جثة هامدة لا حراك بها، فلا بُد من أن تكون هي وارثة أرضه وكنوزه ومعادنه وخيراته.

فلمّا سمِعت صيحة الإسلام الجديدة المدوّية تنطلق من بين رمال الجزيرة دهشت، فأسرعت تراجع ظنونها الخائبة، وارتدت إلى أذهانها صيحة الإسلام الأولى وانبعاثه من هذه الجزيرة العربية نفسها كالأَتِيِّ يتحدّر دفّاقاً من مَخارِمِ الجبال إلى أطراف المعمورة فتحاً وإنشاءً وإعماراً، لا أَجَلَّ منه ولا أروعَ.

فانتصبت لهذا الأمر الجديد.. ترصد أخباره، وتتعرّف مَوارِدَهُ ومَصادِرَه، وتتبين مبادئه وغاياته، عسى أن يكون فجره كاذباً، وأن يعود نشوره موتاً.

حتى إذا كذّب الواقع آمالها، طفِقت تحاول إبطاله، فأوحت إلى وسائل إعلامها أنْ تُلقي الشبهات عليه، وتشوّه صورته، فرمته ورمتِ الناهضَ به بالعضاهة، وخلّطت ما شاءت

لهـا الأهـواء أن تخلّط ممـا يعـرفه العارفون وما بنا حاجة إلى ترديده، **وقلّصتِ الشـأنَ كلَّه حين وضعت هذا الأمـر الجديد العظيم في بؤرة الطائفية التي تزيد أرقام الطوائف رقماً جديداً، أي عكست الحال، فنبزته بالوَهّابيّة «Wahhabism» وأذاعت هذا النَّبْـزَ الأنبـاءُ الجـوائب، فتلقفتـه الأسماع، وردَّدَته الألسنة، ودوّنته الصحف والمجلات والكتب ودوائر المعارف الكبرى بكل لسان.**

وراق الـدولـةَ العثمـانيـة هذا النَّبْـزُ، فأجرته على ألسنة الـدراويش ومرتزقة طعام التكايا والزوايا من تنابلة السلطان، وأفـرطت في إلقـاء الشبهـات عليـه وتشـويهه، ولا سيما بعد استفحـال شأنه، وقيام دولة التوحيد والسُّنّة في جزيرة العرب على أسـاسه وقواعده، فلم يكن نبز أشنع من نبز الوهابيّة في طول ممالكها وعرضها، ودام ذلك أمداً، ووعينا إبّانَ الطفولة وهو يقـرن في بلادنـا بمـا يسمـونـه «الفـرمصـونية» و«البُرْتكيشية» و«المسقوفيّة»، ويعنون «الماسونية» لكفرها، و«البرتغالية» لسوء أفعـال البـرتغـال إبـان احتـلالهم بلاد الخليج العربي وعُمان وغيرها، و«الروس» لحروبهم الدولة الإسلامية ومآتيهم المنكرة

في هذه الحروب!.

ذلـك فعل السياسة، وفي مثله يستوي الطامعون من كل جنس وملّة عند تساوي المقاصد والأغراض، والسياسة الفاسدة لا ضمير لها ولا خُلُق، ولطالما استعاذ بالله العقلاء من (ساس) ومشتقاته، ومن الجهل جُنْديّة الأعمى البصيرة الذي يلقَفُ ما تأفِكــه السّياسـة، ويُرجِف بمـا تلقيه إليه، ليذيعـه غيرَ عالم بالمقاصد والنيات والغايات.

لقـد نظرت السياسات إلى هذا الأمر الجديد في جزيرة العرب بمنظارها الخاصّ، ورصدته بعينها اليسرى العوراء، لا بعين الحقيقـة الصحيحـة، فصـوّرتـه بمـا يحقّق مقـاصـدها وأغـراضها، ومن وراء ذلك يراد الذهاب بريح العرب، وهم مادّة الإسلام.

وكـذلـك وقف رؤسـاء العصبيات، وهي مختلفـة الألوان والمشارب، موقف هذه السياسات من هذا الأمر الجديد..

إنّهم تنكّروا له أشدَّ التنكّر، وأوحوا إلى أتباعهم أن يتنكّروا له كذلك، ويذيعوا قول السوء عنه، فقالوا فيه، وهو النور الذي

يهديهم، ما لم يقله (مالك) في الخمر، فكانوا أعواناً للسياسة في تشويهه وحربه، وقد امتزج في فكرهم الحرصُ على الموروث من الآباء بالخوف من زوال زعاماتهم، وسقوطِ الامتيازات التي يتمتعون بها، هم وحدَهُم دونَ الأتْباع الجهلاءِ المساكين المستضعفين المنقادين للرؤساء بأزمة الشعبذات، وبالشعبذات يُسْحَرُ الجهلاء غير واعين ولا دارين.

شِنْشِنة معهودة في مجتمعات النّاس كافةً، تقترن بانغلاق الأذهان، وتنطوي على حفظ المصالح والامتيازات الخاصَّة، ومنها ينشأ الصراع الدائم في كل زمان ومكان، وعند كل جيل وقبيل، في شرق وفي غرب، ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً.

وأعظم هذا الصراع في التاريخ العربي، هو ذلك الصراع الرهيب بين الإسلام والوثنيّة، وفي الإسلام الحياةُ والنّورُ، وفي الوثنيّة الضمور والظَّلام.

والغلب في نواميس التكوين، إنما يكون للأصلح دائماً مع طول الجهاد والصبر، وهو قانون لا يتخلّف إلا من علة غير منظورة.

وواضح أنّ الطمع والحرص على احتواء النعم والامتيازات يُلقيان في رُوع أصحاب السياسات والامتيازات ما ليس له وجود في الـواقـع، وهم حين يُدعون إلى الصلاح في أي شأن من شؤون الحياة، يتوهمون الخسران وضياع المكانات، وفقدان الامتيازات، فيقاومون ويقاتلون بغير عقل.

ولننظر ماذا خسر رؤساء المشركين من العرب حين تركوا شركهم، ودخلوا في الإسـلام.. ألم ينتفعـوا به هم والفقـراء المستضعفون من أتباعهم في دنيا وفي دين؟ ألم يصبح خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام؟

إن الحقيقة الأزليّة الخالدة في نواميس الحياة، قد تصيبها السياسـات والعصبيّات بشيء من الضُّـرِّ، ولكنّهـا في جميع الأحوال تعجز عن طمسها أو إزالة معالمها.. ثم هي، وأعني **السياسات والعصبيات، لا تملك الفصل في شأنها، وليس ما تصـوّره تزييناً أو تقبيحاً هو واقع الحقائق، وإنما يفصل فيها العلم وحدَهُ بتجرده المطلق ونزاهته وموضوعيته الخالصة من الشوائب والأهواء**. إنّه يَعنِيه من الأشياء في كل شأن يعرِض له،

تعرُّفُ الحقائق في عُرْيها وسفورها كيفما كانت الحال، وفي أي صورة تكـون عليهـا، وإذا كانت السياسـات والعصبيات تبني أحكامها على الأهواء والأغراض الخاصّة، لا تحيد عنها، فإنّ العلم يبني تصـوراتـه وأحكـامـه على البيِّنـات غيرَ متحيّز ولا متحرِّف، وهو يستمد هذه البينات من الوثائق الأصلية الصحيحة مما يدوّنه الإنسان بنفسه خاصّة، لأنّها فصل الخطاب والحُجَّة البـالغـة. ومن هذه الـوثـائق الأصلية ونحـوهـا يستنبط العلم التصوّرات، ويهتدي إلى مقاطع الحق فيوقن، ثم يرسل أحكامه التي لا تستؤنف ولا تميّز كما يقول القضاة.

* * *

على هَدْي مِن هذه الوثائق، التمستُ مقاطع الحقّ، في هذا الأمر الجديد وصاحبِه، من معادنها، غيرَ متأثّر بسياسة من السياسات، أو عصبيّة من العصبيّات.

وبين كلِّ أمرٍ وصاحبه، تقوم علاقة وآصرة، وتَعَرُّفُ صاحب الأمر يتقدَّم تعَرُّفَ أمره؛ لأنه هو مصدره، وإليه يؤول.

وقـد تعـرّفت سيرةَ (محمّـد بن عبـدالـوهّـاب) في كتب

المقربين إليه، والقريبين منه زماناً ومكاناً، فهم أعرف به، ولم ألتمس شيئاً من أمره في كتب مؤرخيه الثانويين ونحوهم.

وتعرّفتُ دعوتَه، والعِلم الّذي طُبِعت به، من مؤلفاته، وهي أنواع.. سيرة نبويّة، وتفسير، وحديث، وأحكام، وتوحيد، ومما هو أدلّ منها على طبيعة فكره واستقلال رأيه، أعني فتاواه ورسائلَه ومجادلاتِه ومراسلاته مع العلماء والرؤساء في جزيرة العرب وما وراء جزيرة العرب في شأن دعوته: مَناشِئِها، ومبادئها، وغاياتها، وأصولها، وأدلتها. والمرء وما يقوله ويقره ويفصح عنه من نيّته وعلمه، لا ما يقوله خصومه فيه.

وأشهد مخلصاً أن بين سيرة (محمّد بن عبدالوهّاب) ودعوته، ولأسمِّها: الدعوةَ التجديدية، رحماً واشجة، وآصرة وثيقة محكمة، يبدُوان من غير تكلّف للرؤية في هذا التطابق التام بين الفكر والتطبيق، وبين ضلاعة الدعوة وضلاعة صاحب الدعوة وشخصيته المتميزة بأنواع من الصفات الأصيلة، ومنها ضلاعة تكوينه البدني، وضلاعة إيمانه، وصلابته، وتمسّكه بالسُّنَّة.

والآثارُ عامّةً، في حال قوتها أو ضَعْفها، نتيجة حال المؤثّر ومزاجه كما هو معروف في مدركات العقل ومسلّماته، وما خلا أدبنا العربي الأصيل من الإشارة إلى هذه الحقيقة المسلَّمة ومن ملحظ العلائق بين الإنسان وما يصدر عنه من شيء.

ألم يقل أحمد بن الحسين أبو الطيّب قبل ألف عام:

على قَدْرِ أهــلِ العــزمِ تأتي العــزائمُ
وتــأتـي على قَدْرِ الـكــرامِ المكــارِمُ؟

وضلاعة (محمّد بن عبدالوهاب) في تكوينه الجسمانيّ، وفي مواهبه وملكاته.. عجب من العجب، فإنّ كل شيء فيه على غاية من القوة والبروز.

ضلاعته في تكوينه الجسماني، تبدو في الرجولة الناضجة التي باكرت صِباه، وفي الاحتلام الذي أسرع إليه قبل إكماله الثانية عشرة من عمره، فأُحْصِن من فَوْرِ احتلامه.

واقترنت بهذه الضلاعة الجسمانية ضلاعة نفسية بالغة، فإذا هو يتحمل تَبِعات الزوجية، ويتصرف بنفسه فرداً في هذه

السنّ الـطفـولية، فيَعْـرَوْرِي فِجاج الأرضين الموحشة البعيدة المُنْتَأَى بين العيينة ومكّة المباركة، فيؤدّي فريضة الحج، ويؤمُّ المـدينـة النَّبويَّة الطَّيبة المباركة، فيقيم بها شهرين متتابعين، مصلياً بالمسجد النبوي طلباً للأجر المضاعف، ثم متشرّفاً بسنّة الـزيارة: زيارة الرسول الكريم ﷺ، والسلام عليه، ومستنشقاً أَرَجَ النبوّة من كَثَب، ومستفيداً من سَماع الدروس في المسجد النبوي المبارك، ثمّ يعود إلى مسقط رأسه موفورَ الحظوظ من متع الروح والقلب، مَزْهوّاً بحجّه وزيارته وصلواته، وفرِحاً بما شاهد من منازل الوحي وبما سمع من علماء الحرمين.

وإلى جانب هذه الضلاعة النفسية العجيبة، تبدت ضلاعته الذهنية في سرعة حفظه وحدّةِ فطنته ويَقَظَةِ قلبه وعمق فهمه، ومن بيّنـات ذلك أنه حفظ القرآن العظيم عن ظهر القلب قبل بلوغه العاشرة من العمر، فأدهش الناس من حوله، وقرأ الفقه على أبيه (القــاضي عبـدالـوهـاب بن الشيخ الفقيه سليمـان التميمي)، وأقبل على كتب التفسير والحديث والعقيدة يلتهمها التهاماً، وطالبُ العلم النجيب نَهِمٌ لا يشبَعُ، وفي اللغة العربية ما في عيون المها من السحر الحلال، وما يأخذ بمجامع الأفئدة

من الإيقـاع والفتـون، وفي كتب التفسير والسُّنّـة الصحيحـة المـطهرة والفقه والتوحيد، الزّادُ الطَّيّب الذي يغذي العقول، وينـوّر البصـائـر، ويشرح الصدور، ويفقّه النفوس بما لها وما عليها، لِتقول طيّباً، وتعمل صالحاً، وفيها العلم العظيم الذي لا أجلَّ منه في علوم فقه الحياة جمعاء.

ومن هذا الفنـاء في العلم، في أصغر سن، بلغ الصّبيّ العبقريّ ما لا يبلغه كبار السن في الأمد البعيد، وفاض على قلمـه ما وعاه فؤاده، فإذا هو في سرعة الكتابة مثله في سرعة الحفظ: يكتب في المجلس الواحد كرّاسةً من غير تعب، فما أشبهـه في حالاته العجيبة بـ(تقيّ الدّين بن تيميّة) العظيم في طفـولتـه في الخوارق النفسية والذهنية وسرعة الحفظ وسرعة الكتابة وحدة الفطنة وكثرة الاستيعاب، الذي أدهش دنيا الشام من حوله، وصار مَثَلاً مضروباً في عبقرية المواهب العالية؛ فلا تثـريب على (عبدالوهّاب) الفقيه القاضي وإمام الجماعة في بلده أن يطير سروراً وإعجـابـاً بصبيه العبقـري النجيب، وأن يتحدث لأصحابه عن مدركاته، وأن يعلن أنه استفاد منه فوائد في الأحكام قبل بلوغه، بل لا تثريب عليه أنْ رآه أهلاً للصلاة

بالجماعة، وهذه رجولته ومعرفته بالأحكام وحفظه وديانته وعقله، فقدّمه إماماً يؤمّ المصلّين، فارتضوه معجبين.

وما يلبث الصّبي الرَّجلُ طالبُ العلم الناشىء أن يدفعه وعيه العميق إلى الموازنة بين ما يقرأ من مسائل التوحيد الخالص وما عليه ناس ببلده من مخالفة له في بعض تعبّداتهم، ومن تعلقهم بالبِدع ومحدثات الأمور، فيثور ثائره.. يردَعُ العامّة عن منكراتهم، وينكر على العلماء أنّهم يرون الاعوجاج ولا يقوِّمونه.

كان ذلك بدء الإشارة إلى ما سيكون عليه شأنه في الإصلاح في مستقبله.

وقد كبُرَ على القوم نكيرهُ، فضحِكوا منه، فارتدَّ إلى نفسه مفكِّراً في الأمر؛ فتحدّثه أنّه لن يتمَّ له تغيير الحال في مثل سنه، وأنه لا بُدَّ له من أشياء يحققها لتكون ظهيره: من علم أوسع من العلم الذي ملك، وتجاربَ وحنكة ما ظفر منها بشيء بعدُ، وسنٍّ أكبر يطاع في مثلها إذا جهر بالحق وصدع به، فعزم أن يبدأ.

إنّ مثل هذه الرؤية الصحيحة في هذه السنّ الصغيرة، لا تكون إلا من شيخ محنّك حكيم، أو عبقريّ مُوَفَّق ومُلْهَم. . وقد كانَهُ هذا الصَّبِيُّ الرَّجلُ!.

ولكأنّه في بؤرة تصوُّره العميق لحاضر أمره ومستقبله، قد حضرت ملكاته كلها، وظل الشأن موقوفاً على إنفاذ العزم.

فإذا عزيمته حاضرة عنده، تتوثَّب به، وتحدوه على المضي بِداراً إلى غايته، وقد فعل.

ومن المرجح أنّ ذلك كان قبل بلوغه العشرين.

غادر مسقط رأسه إلى حيثُ يتاح له أن يعدّ نفسه إعداداً كاملاً للاضطلاع بالأمر الكبير الذي ينوي تحقيقه.

فإلى أي ناحية اتّجه ورحل؟.

قَصرَ مؤرّخوه المقرّبون مواضعَ رحلته على البصرة والأحساء والحرمين، وأضاف مؤرّخوه الثانويّون أقطاراً ومدناً كثيرة. . أضافوا مصر والقدس ودمشق وحلب واسلامبول وبغداد وكردستان وهمذان وأصفهان والرّيَّ وقُمْ، وسمِعتْ بأخرة من

يقول إنّه قرأ في كتاب مخطوط لشيخ من الموصل يقول فيه: إنّه (أي محمّد بن عبدالوهاب) أخذ عنه. والأدلة، لتصحيح هذه المضافات إلى الأقطار الثلاثة، ليست متوافرة.

ويعنينا من هذه الرحلات أن نعرف ماذا أفاد من علم، وكسب من تجاربَ، وخبر من أحوال هذه المجتمعات في شرقي جزيرة العرب وغربيها وشماليها، وما انعكس من هذا كلّه على فكره من تصورات، وارتسم في ذهنه من خطوط الإصلاح ومساره.

كانت هذه المدن التي رحل إليها طلباً للعلم، أكبر مباءات العلوم العربية والشرعية في جزيرة العرب، يفد على مدارسها الطلابُ من نجد ومن الأقطار الإسلامية.

وفي البصرة، وقد أمّها مرَّتين وكانت إقامته فيها أطول إقامة قضاها خارج بلده، لقي جماعة من العلماء، سُمِّيَ منهم واحدٌ وهو (الشيخ محمّد المجموعيّ)، تلقى عليهم النحو فأتقنه، ودرس الحديث والفقه، وفقهُ البصرة في الغالب فقه مدرسة أبي حنيفة.

وفي الأحساء وجد فقهاء، منهم الحنبليّ ومنهم المالكيّ ومنهم الشافعيّ، وهي نسب إلى مدارس سُنّيّة متشابهة، وليست مذاهب متدابرة، وعند بعض هؤلاء الفقهاء وجد استقلالاً في النظر، وصَوْرةً إلى الترجيح، وجراءة على كلّ المخالفين، ووجد عند آخر ميلاً إلى كتابة التاريخ، كما وجد «من يفتي الرجل بقول إمام، والثاني بقول آخر، والثالث بخلاف القولين ويعدّ ذلك فضيلة وعلماً، ويقال: هذا يفتي في مذهبين أو أكثر»، وينكر محمد بن عبدالوهاب ذلك ويقول فيه:

«ومعلوم عند الناس أنّ مراد هذا الفقيه، هو العلو والرياء وأكل أموال الناس بالباطل».

وقد اقتبس من خيار هؤلاء، وتذاكر معهم في شؤون من التفسير والحديث والتوحيد وأصول الإسلام، أخذاً وعطاءً.

وفي المدينة النّبويَّة، التي باكرها في صِباه، وعَرَفَها ملتقى طلاب العلم من الأقطار المسلمة، رأى حياة تختلف عن حياة الناس في البصرة والأحساء، ووجد علماء يحسنون أنواعاً من العلوم والفنون، وطرائقَ في الدروس والإقراء لا عهد له بمثلهم

في بلده، وحضر دروس هؤلاء في المسجد النّبويّ، ونَهَلَ من موارد العلم الـذي يفيضون فيه، ومن كلٍ أفاد وانتفع، ولكنه اصطفى منهم عالمين اثنين انجذب إليهما طبعه وفكره، فوثّق من صلته بهما.

أصـاب عند هذين العالمين الفكر الإصلاحيّ، والدعوة إلى التـوحيد الخـالص والتـزام عمود الكتاب والسنة، ورفض التفـرق في العقيدة، وإبـطال البـدع والمحدثات التي تلصق بالإسلام، فتشوّه محاسنه وتبطل قوته، والإسلام منها بريء ولها منكر.

وقد أفاد من أحدهما (وهو عبدالله بن إبراهيم بن سيف: عالم نجدي، آثرت أُسرته المجاورة، فصار مدنياً) إرشادَهُ إيّاه إلى مؤلفـات تقي الـدين بن تيميّة علامـة الإسـلام المنقـطع النظير، والمفكر الأصيل الكبير العقل الواسع الرواية والعميق الـدّراية، والثـائـر الأكبـر على الفسـاد والانحراف، والمؤلف المبتكر الذي بلغت مؤلفاته نحواً من أربع مئة كتاب وفي كل كتابٍ من العلم والفكر والنظر الصادق ما لا يظفر بشبيه له أو

قريب منه إلا عند كبار أصحابه وتلاميذه، وفي مقدمتهم شمس الدين ابن قيّم الجوزيّة، وقد برع وفاق فكان قمّة شامخة في العلم والفكر والنظر والإخلاص. وهكذا فتح له (ابن سيف) الطريق الأفيح إلى عُباب المعارف، وقاده إلى النَّهَل والعَلّ من أصفى ينابيع المفاهيم الإسلامية، والتضلُّع من ريّها الشافي، ووصل أفقه بأفق الإصلاح الذي ينشده، وسدّده على النهج القويم المستقيم.

وأفاد من الآخر (وهو الشيخ محمّد حياة السِّندي: عالم نيّر العقل سديد الرّأي، من أهل السِّند) تبصيراً بالاستقلال في الفهم وجدواه، وتنفيراً من التقليد والتعصب لمذهب بعينه من هذه المذاهب الفقهية، أو المدارس الفقهية في الأصح، وإرشاداً إلى الدَّوَران مع الحق حيث كان، استدلالاً عليه بالأدلّة القواطع من صحيح النقل وصريح العقل، ذلك أن الله تعالى قد هدى إلى التبصُّر والتفكر واستعمال العقل لتبيُّنِ كلّ أمر، وبشَّرَ عباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ووصفهم بأنّهم هم الذين هداهم الله وهم أولو الألباب.

* * *

تلك جمل من محصول (محمّد بن عبدالوهّاب)، تصف ألـواناً من المنازع العقلية والمعتقدات والمشارب، وقد أحاط بكل شيء منها علماً، ووعياً عميقاً، تمثله فكره تمثّلاً تاماً، فأفاد منها حُظوظاً من العلم والفكر والنظر الجديد. . وانضاف إلى ذلك علْم آخر من أحوال هذه المجتمعات، التي عاش فيها في شرقي جزيرة العـرب وغـربيّهـا، وفي البصرة، وقد لابس فيها الناس، وبَلا معتقداتهم وتعبّداتهم، وما هم عليه من حق ومن باطـل، ووجـد البلوى ـ بلوى الانحـراف عن أصول الإسلام الصحيح في المعتقدات والتعبدات والمعاملات، وفي النزوع إلى التجسيد، والتلبس بالبدع ومحدثات الأمور ـ بلوى عامّةً، وهي في البصرة والأحساء والحرمين مثلها في العيينة بلده.

وكان قد حسب في صِباه الشأن خاصّاً ببلده، فإذا هو أكبر ممّا كان يظنّ.

وقد خرج من العيينة، ليعود إليها يصلح معتقدات ناسها، ويقيمهم على شرائع الإسلام الصحيح، ويقوّم المنآد المعوجّ من الأفكار والأعمال.

ولكنهُ انتهى آخر الأمر، بفضل ما اكتسب في هذه الرحلات العلمية الواعية المستوعبة، إلى التفكير في إصلاح أهل (جزيرة العرب) أجمع، وبسط سلطان فكره على ما وراء جزيرة العرب من أوطان الإسلام.

استصفى ذهنه الناقد الممحص المحضَ واللُّباب، وطرح الزُّؤان والزَّيْف وشخّص الداء، وعيّن الدَّواء، وأوفى من ذلك على الغاية.

ثم رسم الخطوط العريضة للإصلاح ومساراته على بيّنة من العلم ونهجه القويم، وقد وَقَر في قرارة نفسه أن يحقق في (جزيرة العرب) أمرين عظيمين متلازمين، لا ينفصم أحدهما من الآخر، ولا يقوم أحدهما بدون الآخر:

إنشاء مجتمع مسلم مُوَحِّد ومُوَحَّد رفيعِ الفكر، صالحِ العمل، حيّ قوي دفاق، متحرك ومتوثب في سبيل الخير الإنساني العام، تُطَبّق فيه أحكام الشريعة العادلة السمحة في جميع الحالات.

وتكـوين دولـة مؤمنة عادلة قوية الشكيمة، تنتظم (جزيرة العــرب) تحت راية القــرآن، وتقضي على تعـدد الإمـارات والامتيازات، وتذيب الفروق، وتقيم الصلاح بالإسلام: تحوط به المجتمـع وترعاه أحسنَ ما تكون الحياطة والرعاية، صدقاً وعدلاً وإخلاصاً وبِرّاً وعملاً، والدولة عنده الولاية، وسوف أذكر كلامه فيها.

استوحى نهجه هذا من طبيعة الإسلام وتاريخه، ففكّر ثم قدر ثم عمل، واتبع في مساره العلمي والعملي خُطا الرسول الأعظم، ﷺ، خطوةً خطوةً، وما حاد عن هذا المسار القويم قِيدَ شعرة في شيءٍ ما من عقيدته ومن عمله.

إنه نظر إلى الإسلام في بدايته، وكيف صَلُح به الناس، وكيف قامت دولتـه العـظمى الإنسـانية العـادلـة الـرحيمة في الأرض، لأول مرة في تاريخ البشرية المعروف.

ثم نظر إلى ما صار إليه المسلمون من بعدُ، من التفرُّق والفساد وزوال السلطان، والتمس العلّة في ذلك، فاستحال في عقله أن يكـون من السبب الـواحـد مُسَبَّبـانِ متباينان: ارتقاء

وهبـوط، توحـد وتفـرّق، عزة وذلـة.. إلى آخر ما هنالك من الأضداد، ووجد العلّة كلّ العلّة فيما تدنّى إليه المسلمون كامنةً في هذا الانحراف عن أصلي الإسلام العظيمين: كتاب الله، وسنة رسوله.

تولى كبر جريمة هذا الانحراف أناس دخلوا في الإسلام ظاهراً، وأَسَرُّوا الكيد له باطناً على غاية من سوء النية والمكر والدهاء، بعد أن عجزوا عن القضاء عليه مواجهة. وقد ذهب هؤلاء في أعمـالهم الباطنية الرهيبة طرائق قدداً، ولبسوا لَبُوساً متعـدد الألـوان والأسمـاء، ولكنّ المقـاصـد تحتـه واحدة.. وتـوصلوا على تراخي الـزمن إلى ما أرادوه. لقد جعلوا القرآن (عمود الإسلام الأكبر) عِضِينَ، وأدخلوا إلى العقول فيما أدخلوه أنه ذو وجهين: وجه لفظي ظاهر غير مراد، ووجه معنوي باطن والواجب العمل به في المعتقد وفي التعبّد، وتأولوا آياته بأهوائهم فصـرفـوا الألفـاظ عن دلالاتها، وحرّفوا وبدّلوا، وبذروا بذور الشرك الخفيّ والجليّ، فأبطلوا بذلك التوحيدَ الخالصَ وهو سر الوحدة والقوة والعزة، ووضعوا مقادير لا تحصى من الأحاديث المنكـرة الـواهية السخيفـة، وعقـلُ الرسول القرآنيُّ يُجَلُّ عن

مثلها، ودسُّوا الإسرائيليات وخُرافات يهودَ في التفاسير وشروح الحديث وكتب التاريخ. . إلى آخر ما يعرفه أهل العلم من الأفاعيل الخبيثة، مما أفسد العقول، ونشر الضلال والفساد، وفرّق الوحدة، ومزّق الشمل، حتى تعددت الفرق وتدابرت، فلم يكن الناس يلتقون إلا على قتال أو شحناء. . .

من الحالة الأولى، ولد العرب ولادتهم الجديدة التاريخيّة وصاغوا تلك الدولة العظيمة وما استتبعت من إنشاء حضارة عربية مسلمة، انتظمت أجناس الناس تحت راية الإسلام على مثال من الإخوة والعدالة والمساواة غيرِ معهود في تواريخ الحضارات قديمها وحديثها.

ومن الحالة الثانية كان المنقلب.

وإذن فلا معدى عن العودة إلى الأصل القويم. . إلى منبعه الصافي ومشربه العذب: تتشرّبه العقول، وتتضلع بريّه النفوس، لتحيا كما شاء لها الله أن تحيا كريمة عزيزة.

ذلك ما قام في فكر (محمّد بن عبدالوهّاب)، وخامر فؤاده.

وإنه لمطلب في مَناط الثريا، ولن يناله إنسان قاعداً غير قائم، ولا غير مجاهد، فلا بُدّ لمن أراد مثله من العمل وطول الجهاد والمثابرة والصبر.

ووجد (محمد بن عبدالوهاب) القدوة الحسنة في سيرة رسول الله وعمله وجهاده وصبره، فالتزمها بكل شراشِره تطبيقاً جاداً، مثابراً ستين عاماً إلى أن لقي وجه ربّه، وقد أطبق جفنيه ورايـة القـرآن ترفرف على جزيرة العرب ودولة التوحيد قائمة تنتظم البلاد.

ذلك مطلب كان في مناط الثريا، فأنزله بين يديه، ورفع به أمر الحياة.

أنزله لا بعلمِهِ وحدَهُ، فإنّ العلم في الناس كثير، ولكن ما قيمة العلم مدوناً في الكتب لا يعمل به؟ لقد أُلِّفت ملايين من الكتب في كل علم وفنّ، فماذا أجدت المسلمين في تفرقهم وهَوان شأنهم وزوال سلطانهم من الأرض؟

أنزله ومعه العلم والعمل الدائب الذي لا يفتر لحظة من اللحظات.

على أنّ العلم والعمـل الـدائب، لا يجديان في تحقيق المـطامـح الكبيرة ما لم يُرْفَـدا بخصلة عظيمـة تصرّف العلم والعمل، تلك هي خصلة العلم الكُلّي بالسياسة الشرعية، وقد حبـا الله جلَّ وعزّ هذا الرجل، فكملت له بها صفات الزعامة المـطلقـة، وتيسر له بها وهو يصرّف جهاده أن ينزل الثريا من مناطها وهو قائم غير قاعد.

إنّ كل خصاله العبقريّة المتحابّة، ما كانت لتبلغه غايته، لولا امتلاكه هذه الخصلة من العلم الكلّي بالسياسة الشرعية، وتصريفه شؤون الدعوة بها في كل حالاته.

تقوم هذه الخصلة العظيمة عند صاحب الحظ العظيم على الفكر العميق الذي يتعلق بالكليات أكثر مما يتعلق بالجزئيات، ويطلب الجوهر لا العرض، واللباب لا القشور، ويلتمس له في كل ذلك أسباب الحكمة وحسن التلقّي والعطاء.

تأمّلت في المنــظور والمسمـوع من سيـرة (محمّـد بن عبـدالـوهّاب)، وفي إدارته دفّة ثورته التجديدية ستين عاماً، فوجـدتـه يتمتع من هذه الخصلة بحظّ عظيم، وأنّ علمه كلّه

الـذي اكتسب قد ارتبط عنـده بالبصيـرة والتفكّـر والتـدبـر والحكمـة، وبصيرته تدين لطبعه السليم ووعيه، ووعيه وعي كونيّ في أعماقه العقيدة في الله راسخة الجذور وتامّة الحضور، وقـد قامت عنـده على سواء الإيمان العميق بالذات الإلهيّة، وعلى سواء الحق والنـزاهـة والإخلاص، ومُدْركاتُه تشير إلى النـظر المحيط والتصفية والتيقظ للجوهر وطلبه. وجدته وهو ينقل هذه المدركات من أصول العلم الكلي بالسياسة الشرعية إلى تلاميذه والـدعـاة الذين أعدهم على سواء العلم والعمل والخلق، ويلزمهم العمل بها دائماً وأن لا يفارقوها بحال من الأحوال.

كتب رحمه الله لبعض من كاتبهم ناصحاً ومرشداً ومعلماً (ولينظر إلى يُسْر تعابيره وإلى صدقه فيما يقرر كيف يعزو الرأي إلى صاحبـه ولا يدّعيه لنفسـه، ثم إلى التفقّه في الشيء قبل العمل به، وإلى لزوم ربط العلم بالعمل وبالسياسة الشرعية في منطلقاته)، قال:

«وأهـل العلم يقـولون: الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يحتاج إلى ثلاث: أن يعرف ما يأمر به وينهى عنه، وأن

يكـون رفيقاً فيما يأمر به وينهى عنه، صابراً على ما جاءه من الأذى، وأنتم محتاجون للحرص على هذا الفهم والعمل به، فإنّ الخلل إنّما يدخل على صاحب الدين من قلّة العمل بهذا أو قلّة فهمـه، وأيضـاً يذكـر العلماء أنّ إنكار المنكر إذا صار يحصل بسببه افتراق، لم يَجُزْ إنكاره، فالله الله في العمل بما ذكرت لكم، والتفقّه فيه، فإنّكم إن لم تفعلوا، صار إنكاركم مَضرَّةً على الدين، والمسلم [لا] يسعى إلا في صلاح دينه ودنياه».

وفي رسـالـة ثانية، نجـده يتـواضـع فيمـا يقرره، ويدعو لمذاكرته ونصيحته فيما يُظنّ أنّه على غير جادّة الحق، فيقول:

«وإنْ تفضَّلَ الله عليك بفهم ومعرفة، فلا تعذر لا عند الله ولا عنـد خلقـه من الدخول في هذا الأمر. فإنْ كان الصواب معنا، فالواجب عليك الدعوة إلى الله وعداوة من صرح بسبِّ دين الله ورسوله. وإن كان الصواب معهم أو معنا في شيء من الحق وشيء من البـاطـل، أو معنـا غلوٌّ في بعض الأمـور، فالـواجب منـك مذاكرتنا ونصيحتنا، [ودلالتنا على آراء] أهل

العلم، لعَلَّ الله أن يردّنا إلى الحق. . وبالجملة فالأمر عظيم، ولا نعذرك من تأمّل كلامنا وكلامهم، ثم تعرضه على كلام أهل العلم، ثم تبيّن في الدعوة إلى الحق وعداوة من حادّ الله ورسوله منّا أو من غيرنا».

ومن هذه البابة من سياستِهِ الشرعيّة، وإيثاره الحق، أشياء كثيرة في كلامه. وقد كتب إلى ابن فقيه كان أبوه يراسله، ثم حبس عنه رسائله، وأعطاها بعض الناس يقرؤونها على الملأ، قال:

«فإن كان يرى أنّ هذا ديانة، ويعتقده من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأنا ـ ولله الحمد ـ لم آت الذي أتيت بجهالة، وأشهد الله وملائكته أنّه إن أتاني منه، أو ممّن دونه في هذا الأمر، كلمة من الحق، لأقبلنّها على الرأس والعين، وأترك قول كل إمام اقتديت به، حاشا رسول الله ﷺ، فإنه لا يفارق الحق».

وكتب إلى آخر، وهو يصف وعيه الكونيّ، والتزامه عمود الحق في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، قال:

«وأما ما ذكر لكم عني، فإنّي لم آته بجهالة، بل أقول ـ ولله الحمد والمِنّة وبه القوّة ـ: إنّني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيّماً مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، ولست ـ والحمد لله ـ أدعو إلى مذهبٍ صوفيٍّ، أو فقيه، أو متكلم، أو إمام من الأئمة الذين أُعظِّمهم. . بل أدعو إلى الله وحدَهُ لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله، ﷺ، التي أوصى بها أوّلَ أمته وآخرهم، وأرجو أنّي لا أردّ الحقَّ إذا أتاني، بل أُشهِد الله وملائكته وجميع خلقه إنْ أتانا منكم كلمة حق لأقبلنّها على الرأس والعين، ولأضربن الجدار بكل ما خالفها من أقوال أئمتنا، حاشا رسول الله ﷺ، فإنّه لا يقول إلا الحق».

وأوصى تلاميذه الدّعاة «أن يَدْعُوا الناس إلى الله بالحكمة وبالموعظة الحسنة، وأن يجادلوهم بالحسنى، فقد أمر الله رسوليه: موسى وهارون، أن يقولا لفرعون قولاً ليّناً، لعلّه يتذكّر أو يخشى، لأنه يريد من دعوته أن يجمع الناس على الهدى».

وكتب:

«إن بعض أهل الدين ينكر منكراً، وهو مصيب، لكنّه

يخطىء في تغليظ الأمر إلى حدٍّ يوجب التفرقة بين الإخوان، والله تعالى يقول:

﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، ولاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُسْلِمُونَ، واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولاَ تَفَرَّقُوا﴾.

وكتب إلى آخر:

«فاغتنم يا أخي هذا الفضلَ، وكن من أهله، فإنّ النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن وأوصاه:

«لأَنْ يَهدِيَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النّعَم»[1]، وعظَّم القول فيه.. **«فاغتنم ذلك، وادْعُ إلى السُّنة حتى يكون لك بذلك ألفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أئمة بعدك، فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاء في الأثر، فاعمل على بصيرة ونيّة حسنة، فيردّ اللهُ بك المبتدعَ المفتون الزائغ الحائر، فتكون خلفاً من نبيك، ﷺ، فإنّك لن تلقى الله بعمل شبهة»**.

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣٨ من حديث معاذ بن جبل.

وقد بلغ وعيه القمة حين لاحظ أنّ تمام الدين بالدولة، وقد سماها الولاية، وقرر أن المصلحة فيهما لا تتم إلا بالاجتماع، وأن هذا الاجتماع لا بد له من آمر وناه، فتلك هي الولاية، ولذلك سعى لها ليحفظ مقاصد الشرع ومصالح العباد، قال:

«جميع الولايات مقصودها أن يكون الدين كله لله، فإنّه سبحانه إنّما خلق الخلق لذلك، وذلك هو الخير والبِرّ والتقوى والحسنات والقربات والباقيات الصالحات والعمل الصالح، وإن كان بين هذه الأسماء فروق لطيفة، ولا تتمّ المصلحة في الدين والدنيا إلا بالاجتماع، وإذا اجتمعوا فلا بد من أمور يلتزمونها وأخرى يجتنونها، ويقومون للأمر بها والنهي عنها، فلا بد من آمر وناهٍ. وإذا كان لا بد من ذلك، فدخول المرء تحت طاعة الله ورسوله الذي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، خير له. والله قد أنزل الكتاب بالحق والميزان، وأنزل الحديد فيه بأس شديد، لِيقوم الناس بالقسط. ولهذا أمر، ﷺ، أُمته بتولية ولاة الأمور عليهم، وأمر ولاة الأمور أن يؤدّوا الأمانة، وأن يحكموا بالعدل، وأمر بطاعتهم».

أقول: على قواعد القرآن والسنة، وهذه المدارك الحكيمة الحصيفة العالية ـ وقد بلغت الغاية في الضلاعة والسّداد وإصابة الأهـداف كمـا نرى ـ أقام الرجل بناء دعوته، وأفرغ في هذه الدعوة كل طاقاته وصفاء عقله وقلبه. فجاءت على مثاله ضلاعةً وسموّاً وجلالاً.

* * *

وبـدأ المـرحلة التـطبيقية العمليّة بعـد عودته من المدينة النبـويّة إلى العيينـة، وهـو في التـاسعة والعشرين من عمره، ولكأني به حين أطلَّ على جزيرة العرب فرداً لا وَزَرَ له من أحد، ناجى الله جل وعلا أن لا يذره فرداً، وأن يمدَّه بعونه ورحمته، ويبلّغه ما يؤمّله. . لا لدنيا يصيبها لنفسه، ولكن لهداية قوم ضلّوا عن سواء السبيل، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فأراد لهم الهداية والعزّة.

مضى في الـدعـوة في فتـوتـه هذه، بقلب يملؤه الإيمان واليَقَظة والشجاعة، وعقل تعمره الحصافة والعلم والتجارب، وصدرٍ تتوثب فيه العزيمة الصُّلْبَة والإرادة الجارفة، وبصيرةٍ تتألق

بالنور الذي يضيء له الدرب في ليل الناس البهيم.

استلهم [آي] القرآن، ووصل أفقه بأفقه غير حائد عنه، وتأسّى بسلوك الرسول عليه الصلاة والسلام في جميع مراحل الدعوة سَمْتاً بعد سَمْت، فبلّغ كما بلّغ، وبشّرَ، وأنذر... بلّغ الأفراد والجماعات، وبلّغ الأغنياء والفقراء والرؤساء والمرؤوسين، وسيّر الرسل والدعاة إلى من دنا ومن بَعُدَ عن جزيرة العرب من أصحاب السلطان، وسمع الناس منه ومن دعاته كلاماً جديداً، مقروءاً ومسموعاً، لانت له عقول قوم فدانوا وآمنوا واتبعوا، واستغلقت عقول قوم فرفضوه، بل نصبوا له الحرب، ووقفوا دونه يصدون عنه الناس، ويسفهون الداعي وما يدعو إليه من الحق، وتألّبوا على الرجل، وحاولوا غِيلَتَهُ ليذهبوا بريحه، وذهب إلى أصحاب السلطان يقنعهم بما هو عليه من الحقّ، ليدخلوا في دعوته، ويمنّيهم بالفوز بخيري الدنيا والآخرة إذا هم آزروه وناصروه. وقد ائتسى في هذا الشأن أيضاً بالرسول العظيم، عليه أفضل الصلوات والتسليم، فوفّق.

وأخذ البيعة من بعضهم ليضمن قيام «الولاية» كما كان

يقول أو الدولة كما يقولون اليوم، ليحفظ بذلك مكاسب النصر [الديني] الذي استطاع أن يحققه في كثير من أرض الجزيرة. ولكنّ من بايعه على ذلك نقض البيعة، لأن سلطاناً أقوى منه فرض عليه أن يتخلّى عمّا التزمه من هذه البيعة ومن نصر الداعي.. وهنا كان الاختيار الصعب، وكان الموقف الحاسم الذي يقرر مصير الدعوة، وكان ذلك كله يتوقّف على القوة النفسية التي حَدَتْ بهذا الداعي الكبير على أن ينهض بهذا الأمر الكبير، وإذا هي عنده أثبت ثباتاً من الجبال، وعند الشدائد تظهر عزمات الرجال، فما وهن عزمه، ولكنه ازداد قوة، ولا ضعف إيمانه ولكنه ازداد يقيناً بنصر الله له، وانتقل إلى حيث يأمل أن يدخل في دعوته من الأمراء من ينصره ويقيم «الولاية».

* * *

وكأن الله ادّخر الخير كلّه لمن هو أهله من أمراء الجزيرة الكبار أصحاب الشوكة والصولة، لأمرٍ أراد سبحانه كونه ودوامه، فساقه التوفيق إلى (الدرعية)، وكم لله من إرادات يكتب بها لأَنَاسِيَّ، ويحرمها أناسِيّ آخرين! وكان أمير الدرعية

(محمّد بن سعود) نائماً، فاحتضنته السعادة بقدوم هذا الرجل الكبير عليه، وكان ذلك قدراً من الله مقدوراً، ولله عاقبة الأمور.

قذف الله في قلب هذا الأمير الموفق حبه وتصديقه واستجابته لما دعاه إليه من دعوته، فبايعه على أن ينصره نصراً مؤزراً، ويعز الإسلام ويحميه، ويعيد إليه رونقه وجلاله وقوّته الفاعلة في (جزيرة العرب) تحت (راية القرآن).

وأنشأ الله على يده قيام الدولة العربية المسلمة التوحيدية في (جزيرة العرب) بعد غياب عنها دام أكثر من ألف عام، وذلك لتعود (جزيرة العرب) كما بدأت مركز إشعاع على العالم، وليبقى الملك في عقب هذا القائد المؤمن الصادق إماماً بعد إمام، ما لزموا نهج الإسلام الصحيح، وأعدُّوا ما استطاعوا من قوة، وبرُّوا واتّقوا وصَلَحُوا، وأصلحوا، وصاروا وصار العرب والمسلمون معهم يداً واحدة.

وفي هذا بلاغ، والله يفعل ما يشاء.

لقد كان التقاء (محمّد بن عبدالوهّاب) بـ(محمّد بن سعود) توفيق قدر لقدر، ولأمر أراد الله إنفاذه على يديهما معاً،

ولست أدري أكـان يتمّ لِـ(محمّـد بن عبدالوهّاب) أمره لو لم ينهض (محمّد بن سعود) لبيعته ونصره؟ وكذلك ما كان يكون من رفعــة الشــأن لمحمـد بن سعـود وعقبـه لو رفض دعـوة (محمد بن عبدالوهّاب)، ولبث حيث هو أميراً على قرية؟ بل ما كان يكون عليه (جزيرة العرب) وأقدار (العرب) لو بقيت على عزلتها وغطيطها في نومها الطويل قبل صرخة (محمد بن عبدالوهاب)؟.

عقلان كبيران التقيا، وقلبان صافيان اتّحدا وروحان قويّان تحابّا وامتزجا، فأتيا بالعجب العجاب!

ولنترك أحداث التاريخ لكتب التاريخ، [ولننظر إلى جزيرة العـرب المبـاركـة] لنشـاهد مواكب التوحيد موكباً إثرَ موكب، ترفـرف عليها راية القرآن، وتحدوها أهازيج النصر بكلمة الله العليا: «لا إلـه إلا الله محمـد رسول الله، والله أكبر» فيتلفّت الدهرُ، ويهتزّ الثرى، وتُردد الصَّدَى السماءُ، ولله العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين، فقـد صدق الله وعـده، وأيّد جنده، ونصر حزبه، وحزبُ الله هم المنصورون.

وتطبق الأجفان على هذه المواكب، لتحفظ صورها الروائع في سواد العين، وهي مواكب خوالد، لا تبرح ذاكرة التاريخ، **نظمهـا جهـاد هذين العـربيين المسلمين العـظيمين ملاحمَ كالشعر، ترينا أكبر نقلة في هذا العصر الحديث من الخرافة إلى الحقيقـة، ومن التّفـرق إلى التـوحّـد، ومن الجمود إلى الحركة، ومن الانطواء إلى الانتشار، ومن الانغلاق إلى الانفتاح.**

وليكن هذا شأن العرب والمسلمين إلى الأبد، إذا شاؤوا أن يحيوا سادة في أوطانهم، وأحراراً أعزة.

لقد ظلت هذه الملاحم الخوالد إلى هذه الساعة دون أن تنـال حظاً من التصـوير البارع، فهي تستشرف القلمَ الصَّناع يرسم واقعها الخياليّ وخيالَها الواقعي، ويجسّد مواكبها ومعانيها في ألواح من النثر الفني البياني الرفيع والشعر «الشاعر» العبقري الأصيل، تحدث البهجة في النفوس، وتهيج العزائم للاقتداء.

فهـل من فتى نابـغ من أبنـاء هذه الجـزيرة المتميزة، أُمّ البـطولات والعطاء ومصدر الفصاحة والبيان، يُعِدّ مواهبه لهذا

الخير، ويصوّر جلال هذه العبقريات التي أطلت بها على الدنيا في هذا العصر الحديث؟ إني لأطمع ولا أقطع الرجاء.

إنّ (محمّد بن عبدالوهّاب) لم يُعرف على حقيقته بفكره الكـوني وآفـاقه ومعناه. . إنه من معنى الإسلام كبيرٌ وكريم، والمعنى الكبير إنّما يحمله إلى العقول البيانُ الرفيع، فهل حمل روحَ الإسـلام وجماله وجلاله إلى أُمم الأرض من كل جنس ولون، غيرُ الإعجاز البياني في كتاب الله والسّنة الصحيحة المطهرة؟.

نَضَّر الله وجه (محمّد بن عبدالوهّاب). . ما أبهاه بين وجوه المصلحين المجددين الأفذاذ! وما أجلَّ جهاده في الله، وأكرم دعوته إلى الله. . إلى الصراط المستقيم!

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

محمد بهجة الأثَرِيّ

٢ ـ الرسالة الثانية

مُجَدِّد الدِّين في القرن الثاني عشر

د. وَهْبَة الزُّحَيْلي

أستاذ الفقه الإسلامي وأُصوله

كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. . وبعد:ـ

فإن الأُمم كالأفراد يعتريها أحياناً فترات من الضعف والتخلف وتغمرها غاشية من الغفلة والركود، وتشيع في أرجائها مظاهر ساذجة من الجاهلية غير عقلية ولا ناضجة وتصرفات رعناء للعامة الذين قد يؤثِّرون في تفكير الخاصة، فتترك الأُمة العمل بالجوهر النقي، وتقعد عن تحقيق الغاية والهدف، وتعنى بالقشور والمظهر الأجوف، حتى يكاد يصبح ذلك المظهر السَّمج من الدين، والدين منه براء، ويعظم نشاط أهله، حتى لكأنهم يمثّلون الدين، وهم عن الدين الحقيقي بُعداء.

وإذا ما تكلم ناصح، أو تألم مخلص، أو اندفع غيور يدافع عن حرمات الله، سرعان ما اتهمه العوام والسطحيون ـ وهم مع الأسف أكثرية ـ بالمروق والشذوذ والعمالة لفئة ما،

وعدّوا أنفسهم أهل الملة، وسدنة الشريعة وحماة الإسلام.

وعلى هذا النحو مرت بالمسلمين في فترة حكم الخلافة العثمانية وما قبلها أزمنة حجب فيها صفاء الإسلام وبساطته ونقاؤه وجوهره وقوته الحقيقية.

ولكن فضل الله على أُمة الإسلام كبير، إذ حفظ للمسلمين أُصول الشريعة في القرآن والسُنّة الصحيحة، حتى تظل الشريعة حجة على العالم، وحكماً فصلاً في التنازع البشري، فلا تتعكر بانحرافات الناس، وبخاصة العوام، ولا تتأثر بمؤثرات الزمان، حفظاً لشعلة الحق أن تنطفىء، ولميزان العدالة أن ينخفض، ولبرج الصلاح أن ينهدم وينهار: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[1].

وفي سبيل الحفاظ على الوحي الإلهي الأخير، يهيىء الله

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان. وهو حديث صحيح متواتر، انظر (الجامع الصغير، نظم المتناثر في الحديث المتواتر للشيخ جعفر الكتاني: ص٩٣).

تبارك وتعالى صوت الإصلاح الداوي بين الحين والآخر، وإن صاحبه بعض الأخطاء، لأن المصلح بشر، لتعهد الله عز وجل بحفظ الـذكـر المبين، فتثير حركـة الإصـلاح رعب الجبناء، وتقض مضـاجع الأدعياء، وتهز أركان الجهل وكيان الجهلة، وتزلزل مواقع النفعيين: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأُمة، على رأس كل مائة سنة، مَنْ يجدد لها دينها»[1].

فيشرق وجه الحياة الأنضر من جديد، وترسو سفينة الإيمان في بر الأمـان والاستقـرار عنـد المتعقلين الـواعين، وتتضح الرؤية التي عتمتها غياهب الظلام، ويصحو الغافلون، ويستيقظ الراقدون.

ومما لا شك فيه، إنصافاً للحقيقة، لا لإرضاء أحد، وعملاً بآي القرآن العظيم: ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ كان من أجـرأ أصـوات الحق، وأكبـر دعاة الإصلاح، والبناء والجهاد لإعـادة تمـاسـك الشخصية المسلمة وإعادتها لمنهج السلف

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، والحاكم ٤/ ٥٢٢، والبيهقي في «المعرفة» ١/ (٤٢٢) من حديث أبي هريرة، وهو صحيح.

الصالح : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) لتجديد الحياة المسلمة، بعد ما شابها في أوساط العامة من خلافات، وأوهام، وبِدع، وانحرافات، فكان ابن عبدالوهاب بحق، زعيم النهضة الدينية الإصلاحية المنتظر، الذي أظهر موازين العقيدة الشرعية الناصعة، وأبان حقيقة الوحدانية والوحدة والتوحيد الخالص لله عز وجل، وأن العبادة هي التوحيد، وحوّل الشراع رأساً على عقب، للعمل الكامل بالقرآن والسُنّة ونبذ مظاهر الترف والبِدع، وتحطيم ما علق بالحياة المسلمة من أوهام، والعودة إلى الحياة الصالحة الأولى المبسطة التي لا تعرف غير الجهاد الدائم منهجاً، وقصد مرضاة الله مسلكاً، والتزام أحكام الإسلام قانوناً ومظهراً، وبروز دور العقل والفكر، والجد والعلم والاجتهاد فيما لا نص فيه أو ما فيه نص ظني، بغية تقدم الأُمة، وتصحيح مسار الحياة العامة التائه الحائر، لأن دين الإسلام لا يعرف الخرافة ولا الجهل ولا الضلالة، فكانت أعمال ابن عبدالوهاب وثبة جبارة، وقفزة رائعة لتصحيح خطأ الناس في العقيدة والعبادة، في وسط شوهت فيه مبادىء الإسلام ومناهجه.

الفصل الأول

من أين استمد ابن عبدالوهاب مبادئه، أو كيف تم تكوينه الشخصي، وكيف كان طريق الوثبة الإصلاحية عنده؟

الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) هو المثل أو الرائد الأول للشيخ محمد بن عبدالوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣-١٧٩١م)، فقد كان حنبلي المذهب، متأثراً بابن حنبل إمام الحديث في عصره، في عنايته بالسُنّة النبوية واتباعها، واستنباط الفقه العملي منها، وتوفيقه البارع بين النصوص الشرعية وبين مراعاة المصالح الزمنية، وسد الذرائع المتخذة سبيلاً للحرام، وفي جهاده وصبره على البلاء، وتحمله لسع السياط في محنة خلق القرآن[1] في عهد المعتصم، وفي غير

(١) يقرر ابن تيمية: أن مذهب أحمد هو أن القرآن غير مخلوق، ولا يقول: إنه قديم، بل هو حادث بحدوث التكلم من الله سبحانه وتعالى بمشيئته وإرادته عندما يتكلم، وأنزل على النبي ﷺ كلامه بالروح الأمين: جبريل. (ابن حنبل لأستاذنا الجليل المرحوم محمد أبي زهرة: =

ذلك من الآراء في العقائد كالحكم بعدم تكفير مرتكب الكبائر من أهل التوحيد، وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، والإيمان المطلق بالقضاء والقدر، خيره وشره، والاعتقاد بصفات الله تعالى كما وردت دون تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا كيف.

والتصديق برؤية الله تعالى يوم القيامة، معتمداً كباقي الفقهاء والمحدثين على الكتاب والسُنّة، لا العقل المجرد[1].

وقد تعلم ابن عبد الوهاب دروسه الأولى على فقهاء الحنابلة، في مسقط رأسه ببلدة «العيينة» ثم تابع تحصيله العلمي في مكة والمدينة والبصرة.

وظهر بدعوته الجديدة، بعد أن اكتسب من سياحاته عقلاً حديداً، ونظراً ثاقباً[2].

= ص١٤٠).

(١) ابن حنبل للشيخ أبي زهرة: ص١٤٤.

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث للأستاذ أحمد أمين: ص١٠، دائرة المعارف لفريد وجدي: ١٠/٨٦٩ وما بعدها، الإسلام في =

وكـان المعلم الثـاني الـذي أثر في تكوين شخصية ابن عبدالوهاب هو الفقيه السوري الجريء الذي أحسن التعبير عن آراء الحنابلة، وهو تقي الدين أحمد بن تيمية (٦٦١ـ٧٢٨هـ) وتـلميذه ابن قيم الجـوزيه (٦٩١ـ٧٥١هـ) فقـد درس هذا المصلح كتب ابن تيمية في الاعتقاد والفقه، وأمعن في فهمها وآمن بمـا جاءت به، لاعتقـاده أنهـا تمثل السُنّة النبوية، وأن مذهبـه في العقـائد هو مذهب جمهور المسلمين، فهو يمنع التقرب بالموتى ولو كانوا من أهل الصلاح والتقوى في حياتهم، وكان مذهبه في الفقه اتباع كتاب الله، وسُنّة رسوله ﷺ.

وقامت نواة الدولة السعودية الصغيرة التي تأسست بالتعاون بين ابن عبـدالـوهـاب ومحمـد بن سعـود في الدرعية، وفيها التحقيق العملي لآراء ابن تيمية فيما يتعلق بزيارة الأضرحة، وقبور الصالحين، بل قبر النبي ﷺ، ومحاربة البِدع بكل قوة، وإحياء السُنّة بالأعمال، حتى عادوا بالإسلام المطهر إلى سيرته الأولى لدى السلف الصالح الأبرار، دون بِدع ولا خرافات، لأن

= القرن العشرين للعقاد: ص١٠٢ وما بعدها.

البِدع تمزِّق وحدة المسلمين وجماعتهم، وتذهب بجمال دينهم[٦].

وما زالت المملكة السعودية منذ إعادة تكوينها عام ١٩٢٥م تطبق شريعة الإسلام، وتنفذ بالفعل آراء ابن عبدالوهاب في قمع البِدع، وعدم الغلو في الصالحين والتبرك باثارهم، ولكنها أخذت بأساليب ووسائل المدنية الحديثة النافعة، مما يدل على حيوية هذه الدعوة وأصالتها وانطوائها على عناصر الحياة المتجددة ومقومات النمو والازدهار والتقدم.

وجهر ابن عبدالوهاب بدعوته سنة ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م، فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فكانت دعوته الشعلة الأولى

---

(١) ابن حنبل لأبي زهرة: ص٤٠١، وابن تيمية لأبي زهرة أيضاً: ص٥٣٠، العقيدة والشريعة لجولد تسيهر: ص٢٦٧، تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان: ٤/١٩، الكلام والفلسفة للدكتور عادل العوا: ص٤٩، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي: ص١٦٣ وما بعدها، زعماء الإصلاح في العصر الحديث: ص١٣، دائرة المعارف لفريد وجدي: ١٠/٨٦٩، وجهة =

لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله[1]، وقد وجه اهتمامه لمسألة التوحيد التي هي عماد الإسلام والتي دخلها الفساد لدى كثير من الناس، فالتوحيد أساسه ألا يعبد إلا الله وحده بجميع أنواع العبادة، وهذا هو معنى لا إلـه إلا الله.

فمعنى «لا إلـه إلا الله»: أنه لا يستحق العبادة والتعظيم إلا هو[2].

وكان توفيقاً إلهياً عجيباً لابن عبدالوهاب، ذلك التلازم بين الدعوة الجديدة وقيام الدولة السعودية، فقد ناصره وحماه وتبنى آراءه أمير الدرعية، محمد بن سعود سنة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٤م الذي استطاع إخضاع أكثر جزيرة العرب لسلطته، وسلطة آل سعود. ثم أعاد عبدالعزيز آل سعود توحيدها، وإقامة الدولة

العالم الإسلامي للأستاذ مالك بن نبي: ص٤٩.

(١) الأعلام للزركلي: ١٣٧/٧، الإسلام في القرن العشرين للعقاد: ص١٠٣.

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين: ص١٠ وما بعدها.

السعـودية [في أكثـر جزيرة العـرب في أول الرّبــع الثاني من القرن العشرين[1] باسم المملكة العربية السعودية].

وقد تم التعاهد بين ابن عبدالوهاب وابن سعود على النصرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصيغة كانت تستعمل بين عرب الجاهلية «الدم بالدم . . . والهدم بالهدم» أي دمي دمك، وهدمي هدمك.

وكان من أهم مقومات نجاح ابن عبدالوهاب: أنه كان قوي التـأثير في أصحـابـه جذاب الحديث، قادراً على إلهاب نار الحمـاسـة في قلوب أعـوانه، وعلى استثمار محبتهم العارمة للحرب في سبيل قضيته[2].

وقـد أضـاف لمبـادىء وأفكار ابن تيمية مجهوداً خاصاً، تجلى في تأكيده الحرب ضد البِدع والخرافات.

---

(١) نظام الإسلام للدكتور وهبه الزحيلي: ص٤٩١، الإسلام في القرن العشرين: ص١٠٥.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان: ٤/ ٢٠.

وقد دعمه الزعيم محمد بن سعود، فقام بمغامرات حربية لإقامة السُنّة الصحيحة[1] وإعادتها، ولحرص ابن عبدالوهاب الشديد على مبدأ التوحيد، وتطهير المجتمع الإسلامي من شائبة الشرك والبِدع، سمي هو وأتباعه بـ «الموحدين». . أو «أهل التوحيد» «إخوان من أطاع الله» أو «أهل الفرقة الناجية». . وسماهم خصومهم بالوهابيين نسبة إليه، وشاعت التسمية الأخيرة بين الناس. . . وبخاصة الأوربيين، وأخطأ بعضهم فجعل هذه الحركة الإصلاحية «مذهباً» جديداً في الإسلام، تبعاً لما افتراه خصومهم، ولا سيما الترك العثمانيون[2] بل وأطلق عليهم اسم «الخوارج»، ومنهم مَنْ جعلهم كالروافض والبابية[3].

(١) العقيدة والشريعة، جولد تسيهر: ص٢٦٧.

(٢) الأعلام للزركلي: ١٣٧/٧، زعماء الإصلاح: ص١٠

(٣) جولد تسيهر، المرجع السابق: ص٢٦٩، دائرة معارف وجدي: ٨٧٢/١٠ والبابية: أتباع سيد علي محمد المولود في بوشير في إيران سنة ١٨٢١، ادعى أولاً نزول الوحي الإلهي عليه، وأنه المهدي المنتظر الذي بشر النبي بظهوره ثم دعا نفسه بأنه «المرآة» التي بها يشاهد الله نفسه (بروكلمان: ١٦٠/٤ وما بعدها).

ولقـد حوصرت هذه الحركة حصاراً شديداً، واستخدمت الدولة العثمانية والي مصر محمد علي باشا الكبير، أداة للقضاء على دولتهم، فحـاربهم بجيش قوي من الفـرسان بقيادة ابنه «طـوسـون» فكانت الحرب بينهم سجالاً، ثم انتصر عليهم، وفتح المدينة في تشرين الثاني سنة ١٨١٢م، وبعد شهرين في كانـون الثـاني من العام التالي سلّم الشريف غالب مكة إلى المصريين، وفي الصيف استطاع هؤلاء أن يحتلوا الطائف أيضاً[١].

وتجـددت الحـرب في آب سنة ١٨١٦م؛ فأرسل محمد علي ابنه بالتبني إبراهيم باشا الكبير، فسار من القاهرة، وحاصر الدرعية في نيسان سنة ١٨١٨م واشتد الحصار، حتى اضطر في ٩ أيلول سنة ١٨١٨م الأمير عبدالله بن سعود إلى الاستسلام[٢].

---

(١) بروكلمان: ٤/٢٢ وما بعدها. دائرة معارف وجدي: ١٠/٨٧٠ وجهة العالم الإسلامي: ص٤٩. الجبرتي في مقال جلال الكشك في مجلة الحوادث عدد ١١٧٤.

(٢) بروكلمـان: ٤٠/٢٦، الجبـرتي في مقال جلال الكشك في مجلة =

ويلاحظ أن هذه الحروب التي شنت على جماعة هذا المصلح والأوصاف التي أطلقت عليهم، كانت ذات هدف سياسي لا ديني، ومن أجل مصالح اقتصادية ولتحقيق نفوذ وسيطرة العثمانيين، ودفاعاً عن مصالح شخصية سياسية ومادية، وليس عن الإسلام أو المسلمين، ولا غيرة على الدين، ولا نصرة للدين، والسبب أن كراسة ابن عبدالوهاب كانت أول منشور مكتوب على نطاق العالم العربي لشرح أهداف ومبادىء حركة ثورية ضد السلطة العثمانية[1].

لذا لم تلق الدعوة الوهابية نجاحاً كبيراً خارج جزيرة العرب، لقيام ألوان متعددة من الدعايات المغرضة ضدها، ولتعلق المسلمين بالخلافة العثمانية رمز الوحدة الإسلامية.

وقد أدت هذه الدعاية في أوساط المسلمين إلى استنكار وصف «الوهابية» و«الوهابي» حتى بين المشتغلين بالعلوم الشرعية، ومحاولة التبرؤ من ذلك إخلاصاً للإسلام!!

= الحوادث عدد ١١٧٦.

(١) الجبرتي في مجلة الحوادث عدد ١١٧٤: ص٦٨، ٧١.

وذلـك لا ريب تمـزيق للوحـدة الواجبة بين المسلمين، وتحطيم لمبدأ التعاون المفروض عليهم، ولون من ألوان الجهل والسـطحية والتسـرع في إصـدار الأحكـام، فما أسرع صغار طلاب العلوم الشرعية إلى وصف كاتب أو متحدث بأنه ملحد زنديق!!

الفصل الثاني

أصالة المبادىء التي دعا إليها محمد بن عبدالوهاب وشرعيّتها

إن كل منصف مخلص، متجرد واع لمبادىء الإسلام وأحكامه، لا يجد فيما دعا إليه المصلح محمد بن عبدالوهاب الداعي الكبير أي انحراف أو مجافاة أو مصادمة لما جاء به الإسلام، وإنما دعوته تمثل مبادىء الشرع الأصلية، وهي شرعيّة روحاً ودماً ونزعة ومظهراً، فهي ليست بِدعاً في الإسلام، ومزيتها ـ على حد تعبير الدكتور عبدالله بن تركي مدير جامعة محمد بن سعود الإسلامية[1] ـ لا تتمثل في شيء جديد في مبادئها، وما دعت إليه، فإنها لم تأت بجديد، ولا جديد في الإسلام، فهو أحكام ووحي نزل من عند الله تبارك وتعالى على

(١) من تقديم لمؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب ـ ملحق المصنفات: ص١.

محمد ﷺ . . . ولم يبق بعد وفاته أمام أمته وأتباعه إلا اقتفاء أثره، والاستمساك بالمحجة البيضاء التي ترك الأُمة عليها.

ويتضح ذلك فيما تتلخص به آراء ابن عبدالوهاب الأساسية[1]:

١ ـ الرجوع بالإسلام إلى ما كان عليه في الصدر الأول.
٢ ـ تخليص التوحيد مما شابه من شرك.
٣ ـ إنكار التوسل الممنوع شرعاً بالأولياء والصالحين [الأموات].
٤ ـ طرح البِدع والخرافات.

---

(١) حاضر العالِم الإسلامي للدكتور محمود محمد زيادة: ٢٢ وما بعدها، دائرة معارف وجدي: ١٠/٨٦٩ وما بعدها، الاتجاهات الحديثة في الإسلام. . للمستشرق الانجليزي جيب: ص٥٧، ٦٣ وما بعدها، ذيل الملل والنحل: ص٥٧، معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبدالكريم عثمان: ص٥٣٦ـ٥٤٠ وانظر أيضاً بالفرنسية: مقال مرجليوث في دائرة المعارف الإسلامية: ٤/١١٤٤، النسخة الفرنسية، وكتاب الدكتور هنري لاووست «محاملة حول أفكار ابن تيمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ص(٣٢ـ٣٣) مقال رابح جمعه في مجلة الفيصل عدد ١٥ ص٨٠).

وكان من أبرز معطيات هذه الدّعوة عملين كبيرين:

أولهما: أنها فتحت باب الاجتهاد في الفروع بعد أن ظل مغلقاً منذ سقوط بغداد في سنة ٦٥٦هـ.

وثانيهما: ضرورة القيام بواجب الجهاد، وإحياء هذه الفريضة التي أصابها الوهن، فكانت الدّعوة ثورة عارمة على الاستبداد والضعف والانحلال الذي آل إليه العالم الإسلامي[١].

ولقد أعلن الإمام ابن عبدالوهاب مبادئه فقال[٢]:

إعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة:

الأول: الشرك في عبادة الله (وحده لا شريك له)، والدليل قوله تعالى:

﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغفِرُ ما دُونَ ذٰلك لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) العالم الإسلامي والاستعمار الثقافي للأستاذ أنور الجندي ص: ٧٠.

(٢) مؤلفات الشيخ ابن عبد الوهاب، القسم الخامس ـ الرسائل الشخصية: ص٢١٢ ٢١٤ـ٣٨٥.

ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو [الأضرحة أو المزارات، ومنه دعاء غير الله].

الثاني: مَنْ جعل بينه وبين الله وسائط، يدعوهم ويسألهم الشفاعة، كفر إجماعاً، [وقال تعالى: ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾].

الثالث: مَنْ لم يكفر المشركين، أو شكَّ في كفرهم، أو صحح مذهبهم كفر إجماعاً، [قال تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾].

الرابع: مَنْ اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه، فهو كافر، [قال تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾].

الخامس: مَنْ أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به، كفر إجماعاً، والدليل قوله تعالى: ﴿**ذٰلك بأَنَّهم كَرِهُوا ما أَنزلَ اللهُ فأحبطَ أعملَهُمْ**﴾ [محمد: ٩].

السادس: مَنْ استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿**قُلْ أبالله وءايٰته ورَسُولِهِ كُنتُم تَستهزِئون، لا تعتذروا قد كفرتُم بعد إيمٰنكُم**﴾. [التوبة: ٦٥، ٦٦].

السابع: السحر، ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿**وما يُعلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حتَّى يَقُولاَ إنَّما نحنُ فِتنةٌ فَلاَ تكفُر**﴾. [البقرة: ١٠٢].

الثامن: مظاهرة المشركين، ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكم فإنَّهُ منهُم إنَّ الله لا يَهدِي القومَ الظَّٰلمينَ**﴾. [المائدة: ٥١].

التاسع: مَنْ اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباعه ﷺ، وأنه يسعه الخروج من شريعته، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليهما السلام، فهو كافر، [قال تعالى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**﴾].

العاشر: الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿**ومَنْ أَظلم ممَّن ذُكِّر بأيٰتِ ربهِ ثُمَّ**

أعرضَ عنها إنَّا مِنَ المُجْرِمينَ مُنتَقِمونَ﴾. [السجدة: ٢٢].

ولا فرق في جميع هذه النـواقض بين الهـازل والجـاد، والخائف إلا المكره وكلها من أعظم ما يكون خطراً، ومن أكثر ما يكـون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرها، ويخاف منها على نفسه، نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه.

* * *

ويحسن بإيجاز استعراض آراء محمد بن عبدالوهاب، كل رأي أو مبـدأ على حدة، لنعلم مدى أصالته، ومطابقته لدعوة الإسلام الأولى:

١ـ الرجوع بالإسلام إلى ما كان عليه في الصدر الأول:

يعلم كل مسلم يقينـاً وبـداهـة أن السلف الصـالـح من الصحـابـة والتابعين وتابعيهم في القرون الثلاثة الأولى الذين شهـد لهم النبي ﷺ بالخيرية، هم صفـوة المسلمين الـذين صنعوا ـ بتأييد الله ـ تاريخ الإسلام، والتزموا مبادىء الإسلام عقيدة وشريعة، ومنهجاً وسلوكاً، وعلماً وعملاً وإعداداً، عملوا بكتـاب الله وسُنّـة رسوله ﷺ، فهم أهل للاقتداء بهم واقتفاء سيرتهم، واتباع تربيتهم. وذلك بنص القرآن الكريم:

﴿والسَّـبقـونَ الأَوَّلـونَ من المُهـجِرينَ والأَنصار والَّذينَ اتَّبَعُوهُم بإحسـنٍ رضيَ الله عنهم ورضُوا عنهُ وأَعدَّ لهُم جَنَّـتٍ تجري تحتها الأنهـر خـلدينَ فيها أَبداً ذٰلك الفوزُ العظيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأما اتباع القرآن والسُنّة: فهو محض هدف الإسلام وغاية تشريع الإلـه، ومطلب الوحي كله:

﴿قَد جَآءَكُم من الله نُورٌ وكِتَـبٌ مُّبينٌ، يَهدي به اللهُ من اتَّبَعَ رِضوانهُ سُبُلَ السَّلـمِ ويُخرِجُهُم من الظُّلُمـتِ إلى النُّورِ بإذنهِ ويهدِيهم إلىٰ صراطٍ مستقيم﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿يـٰأَيُّهـا الَّـذينَ ءَامَنُـوٓا أطيعوا الله وأطيعُوا الرَّسولَ وأُولي الأَمرِ منكُم﴾ [النساء: ٥٩].

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَد أَطاعَ الله﴾ [النساء: ٨٠].
﴿ومَآ ءَاتـٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهـٰكُم عنهُ فانتهُوا﴾[1] [الحشر: ٧].

وفي الحديث الصحيح: «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا،

(١) قسم العقيدة من مؤلفات الشيخ ابن عبدالوهاب: ص٢٦٠.

ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسُنّة رسوله»[1]، «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[2] «أُوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأُمور، فإن كل محدثة بِدعة، وكل بِدعة ضلالة»[3].

وهكذا يتبين أن الرجوع إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه أمر ضروري في الإسلام، لا يكرهه إلا شاذ مارق.

٢ـ تخليص التوحيد مما شابه من شرك:

من المعروف بداهة أن مزية الإسلام الجوهرية: هي كونه دين التوحيد الخالص لله عز وجل من شوائب الشرك والوثنية، وأنه قام لهدم أركان الوثنية، وتحطيم الأصنام، وأن العبادة هي

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» بلاغاً ٢/ ٨٩٩.

(٢) حديث صحيح رواه النووي في كتاب الحجة بإسناد صحيح عن عبدالله بن عمرو.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح.

التوحيد[1].

﴿واعبُدُوا اللهَ ولا تُشرِكوا بِهِ شيئاً﴾ [النساء: ٣٦].

والتوحيد نوعان[2]: توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية والعبادة، والأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته، وأفعاله وأسمائه:

﴿هُو الأَوَّلُ والأَخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ وهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ [الحديد: ٣].

﴿قُل هُو الله أَحَدٌ. اللهُ الصَّمَدُ، لَم يَلِد ولم يُولَد. ولَم يَكُن لَّهُ كُفُواً أحد﴾ [الإخلاص].

والثاني: ما تضمنته سورة:

---

(١) مؤلفات الشيخ ابن عبدالوهاب، القسم الأول ـ العقيدة والآداب الإسلامية: ص٩.

(٢) المرجع السابق: ص٨٩ والقسم الخامس ـ الرسائل الشخصية: ص١٥٠ وما بعدها، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن آل الشيخ ص١١، الحركة الوهابية للدكتور محمد خليل الهراس: ص١٤ وما بعدها.

﴿قل يـأيُّها الكَـٰفِرونَ﴾ [الكافرون: ١].

وقوله تعالى:

﴿قُلْ يـأَهلَ الكتـٰبِ تعالوا إلىٰ كَلِمَةٍ سـوآءٍ بيننا وبينكم أَلَّا نعبُدَ إلَّا الله ولا نُشرِكَ بِهِ شيئاً ولا يتَّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِنْ دُونِ اللهِ فإن تولَّوا فَقُولُوا اشهدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال شيخ الإسـلام ابن تيمية: «التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الألوهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إلـٰه إلا الله: لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالى إلا له، ولا يعـادى إلا فيه، ولا يعمـل إلا لأجله، وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات[1].

وقد اهتم ابن عبد الوهاب[2] بالدعوة إلى التوحيد، ورفض كل مظاهر الشرك والوثنية، وحذّر من أنواع الشرك الأربعة: شرك

(١) فتح المجيد، المرجع السابق ص١٢.

(٢) مؤلفـات الشيخ ابن عبدالوهاب في العقيدة: ص١٨، ٦٨، ٩٨، ١٠٠، ٢٨٢، والـرسـائل الشخصية: ص٨٨-٩١، ٩٥ وما بعدها، ١٢٠ وما بعدها.

الألوهية، وشرك الربوبية، وشرك الارادة، وشرك الطاعة، وندد بمَنْ يخلط فيها، فقال: إن شرك العبادة هو شرك الألوهية، وشرك الربوبية: هو شرك الملك، ومن الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، [وطاعة المخلوق في معصية الخالق].

وأورد الآيات والأحاديث الكثيرة التي تندد وتحارب الشرك بمختلف صنوفه، مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ لا يغفِرُ أن يُشرَكَ بِهِ ويَغفِرُ ما دُونَ ذٰلكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿واجنُبني وبَنيَّ أن نَّعبُدَ الأَصنامَ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٥].

ومثل حديث البخاري عن ابن مسعود: «مَنْ مات وهو يدعو من دون الله نداً، دخل النار»[١]، وحديث مسلم عن جابر: «مَنْ لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومَنْ لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»[٢] وحديث أحمد والطبراني والبيهقي: «أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٩٣) (١٥٢).

(٣) أخرجه أحمد ٥/٤٢٨، والبيهقي «الشعب» (٦٨٣١) من حديث =

والخلاصة: أن لا يرضى أي مسلم بديلاً عن توحيد الله ورفض كل أنـواع الشـرك، لأن أسـاس عقيدة المسلم هو التوحيد، والنطق بالشهادتين، والبراءة من الشرك وأهله.

وكما يطلب التوحيد في العقيدة، يطلب التوحيد عند ابن عبـدالوهاب في التشريع، فالله وحده هو مشرِّع العقائد، وهو وحده الذي يحلل ويحرم، فليس كلام أحد حجة في الدين إلا كلام الله وكلام رسوله، فالله يقول:

﴿أَم لَهُم شُرَكَـٰؤُاْ شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٣ـ إنكار التوسل بالأولياء والصالحين الأموات:

حدّد اللـه تبارك وتعالى طريق الوصول إليه بطريقين هما: العمل الصالح، والدعاء المباشر.

أما العمل الصالح: فواضح في قوله تعالى:

﴿يَـٰأَيُّها الَّذينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وابتغُواْ إليهِ الوسيلَةَ وجَـٰهِدُوا في سَبيلِهِ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

= محمود بن لبيد أن النبي ﷺ..، والطبراني في «الكبير» (٤٣٠١) من حديث محمود بن لبيد عن رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ...

والمقصود بالوسيلة خلافاً لما يشيع عند أهل التوسل[1]: هو ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود، وهي القربة، ومعنى الآية: يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان خذوا لنفسكم الوقاية من عذاب الله، بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وتقربوا إليه بالطاعات، والعمل بما يرضيه فإن هذا هو الوسيلة إليه: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة**﴾ وجاهدوا أنفسكم بكفها عن المحرم، والتزامها الصراط المستقيم، وجاهدوا أعداء الإسلام، حتى يكون الدين كله لله، ومن المعلوم أن الجهاد في سبيل الحق والعدل وخير الأمة والوطن، جهاد في سبيل الله.

وأما الدعاء المباشر لله بدون وسائط ولا وسائل، خلافاً لصنيع البشر عند قضاء حوائجهم لبعضهم، فيتمثل في آيات كثيرة منها:

﴿**وقَالَ رَبُّكُمُ ادعُوني أستَجِبْ لَكُم**﴾ [غافر: ٦٠].

فالدعاء هو العبادة كما ثبت في السُنّة[2] وهو طريق الثواب

---

(١) التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي: ٦/ ٤٩، ١٥/ ٢٨.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد ٤/ ٢٦٧، وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٠٠، =

المكافىء للأعمال.

ومن الآيات المبينة طريق الدعاء بدون وسيلة:

﴿وإذا سألَكَ عِبَادي عنّي فإنّي قَريبٌ أُجِيبُ دَعوةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿أَمَّن يُجيبُ المُضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السُّوء﴾ [النمل: ٦٢].

﴿يَـٰأَيُّها النَّاسُ أنتُمُ الفُقَرآءُ إلى اللهِ واللهُ هُوَ الغنيُّ الحميدُ﴾ [فاطر: ١٥].

﴿قُل لآ أملِكُ لِنَفسي نَفعاً ولا ضَرّاً إلَّا مَا شَآءَ اللهُ﴾

= والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، وأبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والترمذي (٢٩٦٩) و(٣٢٤٧) و(٣٣٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٦٤)، وصححه ابن حبان (٨٩٠) من حديث النعمان بن بشير، رضي الله عنه.

وصححه الحاكم ١/ ٤٩٠-٤٩١ و٤٩١ ووافقه الذهبي.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه أبو يعلى في «معجمه» ص٣٤٦ عن البراء بن عازب وإسناده صحيح.

[الأعراف: ١٨٨].

﴿قُل إنّي لا أملِكُ لَكُم ضَرّاً ولا رَشداً. قُل إنّي لَن يُجيرَني مِنَ اللهِ أحدٌ وَلَن أجِدَ مِن دُونِهِ مُلتَحَداً﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

وبناء عليه فسَّر الإمام ابن عبد الوهاب «الجامع لعبادة الله وحده» في رسالته السابعة[1] بأنها طاعة الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأبان أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله تعالى، وهي: الدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، وذبح القربان، والنذر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والمحبة والخشية، والرغبة، والرهبة، وغير ذلك؛ كله لله، فالعبادة: هي إفراد الله وحده بأنواع العبادة قولاً وفعلاً، كما مثل فيما ذكر.

ومن ذلك: الشفاعة؛ لا تطلب إلا من الله، ولا تكون إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى إلا ما كان خالصاً لله وحده صواباً، وهو ما شرعه على لسان رسوله، قال تعالى:

---

(١) مؤلفاته، قسم العقيدة والآداب: ص٣٧٩، وانظر أيضاً ص٣٥-٤٢، والقسم الخامس - الرسائل: ص٩٠، ١١١-١١٣.

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشفَعُ عِندَهُ إلَّا بِإِذْنِه﴾ [البقرة: ٢٥٥].
﴿ولا تَنفَعُ الشَّفَـعَةُ عِندَهُ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقد عرفنا أن ابن عبدالوهاب جعل مخالفة هذا من نواقض الإسلام العشرة: «مَنْ جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة، كفر إجماعاً»[1].

كما أنه خصص الباب ١٨ من قسم العقيدة لما «جاء أن سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم، هو الغلو في الصالحين» وأن عقيدته ودينه هو مذهب أهل السُنّة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين، مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة، وهو إخلاص الدين لله، والنهي عن دعوة الأنبياء والأموات من الصالحين، وغيرهم[2].

---

(١) الرسالة الثانية والثلاثون في قسم الرسائل الشخصية: ص٢١٣، والقسم الأول في العقيدة ص٣٨٥.

(٢) القسم الأول من مؤلفاته في العقيدة والآداب: ص٥٦ والقسم الخامس ـ الرسائل: ص١٥، ١٧٦، ١٨٦، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٣١ وما بعدها، ٢٤٢.

ومما لخصه من كلام ابن تيمية (رقم ١٠١): من جوز أن يطلب من المخلوق، كما يطلب من الخالق من كشف الشدائد، فكفره أشد من كفر عباد الأصنام، فإنهم لا يطلبون منها كما يطلب من الله، كما قال تعالى:

﴿وإذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البحرِ ضَلَّ مَن تَدعُونَ إلاَّ إيَّاهُ. . .﴾ [الإسراء: ٦٧].

وذلك لأنه لا يملك النفع والضر غير الله، ولذا أنكر الله تعالى على من يدعو أحداً من دونه، ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً، كقوله تعالى:

﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ [فاطر: ٣٥].

﴿قُل أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفعُنا ولا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١].

﴿ولاَ تَدُعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فإن فعلتَ فإنَّكَ إذاً مِنَ الظَّـلـمِينَ﴾[1] [يونس: ١٠٦].

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ص١٦٧.

والحقيقة أن اتصال العبد بربه لا داعي أصلاً فيه للواسطة، فلا إلـه إلا الله تعني نفي كل الوسائط، فلا ملجأ إلا إلى الله ولا اعتماد في الدنيا والآخرة إلا عليه[1].

٤ـ طرح البِدع والخرافات:

وجـد المجـدد ابن عبدالوهاب مظاهر في العالم المسلم تشيع بين العـوام، كلهـا بِدع شاذة، وتخريفات واهية، تغاير تعـاليم الإسـلام، مثل بناء القباب على القبور وتجصيصها، وكسـوتها بالحرير المذهب، ووضع العمائم الخضراء عليها، وتشييد الأبنية عليهـا، واتخـاذهـا مسـاجـد، والنـذر للأولياء وأصحـاب القبـور، والـطواف حولها أحياناً، والاعتقاد بالنفع والضـر لشجـر أو حجـر، أو بشـر، والاستغـاثـة بالصالحين، والاستعـانـة بهم، والصـلاة إلى قبورهم، والتمسح بالقضبان والتبـرك بالعمدان أو بالشجر والحجر، وشد الرحال إلى قبور أحـد الأولياء، وزيارة القبـر لدفـع الكـرب، أوجلب النفـع، والمراسلة تارة.. والاهتمام بالحجب والرقي (العزائم) والتمائم

(١) زعماء الإصلاح ص١٤، الحركة الوهابية للدكتور محمد خليل هراس ص١٧ وما بعدها و٢٣ وما بعدها.

والسحر[1] للوقاية من المكروه، والاحتفال بالموالد، وبخاصة في مصر كمولد الحسين والبدوي، ومنكرات المآتم والجنائز، وحفلات التشييع في الوقت الحاضر، ونفقات أيام الخميس وليالي الجمع والأربعين والذكرى السنوية، وأيام الأعياد، واستئجار قرّاء القرآن للقراءة على روح الأموات، والتبرك بآثار فلان وفلان، وحلقات الذكر المصحوبة بالطبول والصنجات والسماع والرقص، مما لم يكن في صدر الإسلام، وبِدع الصوفية المتنوعة، ولا سيما التأويلات والخوارق ونحو ذلك[2].

(١) غبر على البادية زمان يتكلون فيه على التعاويذ والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين، ويدعون السعي من وجوهه، توسلاً بأباطيل السحرة والدجالين حتى في الاستسقاء ودفع الوباء، فكان حقاً على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوان من البِدع.. والخرافات (الإسلام في القرن العشرين للعقاد: ص١٠٩).

(٢) مؤلفات ابن عبد الوهاب، القسم الخامس ـ الرسائل: ص١٥٠، ١٧٦، وما بعدها، ١٨٦، فتاوى ابن عبدالوهاب الملحقة بالقسم الثالث من مختصر سيرة الرسول عليه السلام: ص١٠١، قسم العقيدة: ص٣٢، ٥٦، ٦٠-٦٦، ٦٨، وما بعدها، ١٢٩، ١٣٨، =

فهال ابن عبد الوهاب تلك البِدع، ودعا إلى نبذها والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده، لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة، ولا بوساطة التوسل و[الاستغاثة]. وزيارة القبور للدعاء والاعتبار، لا للتوسل والاستشفاع[1]، فقرر أنه لا [يستعان ويستغاث] إلا بالله، وأن النذر لله لا للوليّ، وأنه لا بد من إعادة الحياة اليومية إلى بساطتها في عصر السلف وتحريم كل صنوف الترف، وجعل عصر صدر الإسلام نموذجاً يحتذى

٢٢٥، ٣٠٢، ملحق المصنفات: ص٨٦، ٩٠-٩٧، ١٠٩، العقيدة والشريعة جولد تسيهر: ص٢٦٨، الإسلام في القرن العشرين: ص١٠٧.

(١) الذي يعتبر شركاً على الحقيقة في الدعوة الوهابية ليس هو بناء القبور على وجه الأرض ولا زيارتها في انتظام بل هو ما يرتكب أثناء الزيارة لهذه القباب من دعاء صاحب القبر والاستغاثة به وطلب الحاجات واستمداد البركات منه ثم وضع النذور في صندوقه وسوق الذبائح إلى ساحته والاهلال عليها باسمه فهذه الأمور ذريعة إلى الشرك، وهدم القبور وتسويتها إنما هو صيانة لجانب التوحيد لا انتهاك حرمة الموتى. فالوهابيون يعرفون قدر الموتى، لا أطلال القبور (الحركة الوهابية للدكتور هراس: ص١٧، ١٩، ٤٥).

وقاعدة للأخلاق والسلوك والعبادة والعقيدة.

وأما [دعاء مقبور] أو قبر، فهو شرك لا يرضاه الله، وهو هدم للتوحيد الذي جاء به الإسلام، وتذلّل للمخلوقات، لا لله تعالى، مما يؤدي إلى انهيار عزة الامة، وفقد سيادتها، وتذلّلها للطواغيت، وتعطيلها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذلك أشبه بالوثنية الجاهلية:

﴿ما نَعبُدُهم إلَّا ليقُرّبونا إلى اللهِ زُلفى﴾ [الزمر: ٣].
﴿هـٰؤلاءِ شُفعـٰؤُنا عندَ اللهِ﴾ [يونس: ١٨].

ولا يصلح آخر زماننا إلا بما صلح به أوله، فلا بد من العودة إلى الحياة الشرعية الأولى، حيث التوحيد الخالص الصحيح، والعزة الحقة، ولا بد من هدم هذه البِدع، ولو بالقوة[1].

وفي سبيل ذلك جدّد ابن عبدالوهاب عقيدة التوحيد في

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث: ص١١، ١٣، ١٤، ١٧، ٢٠، العقيدة جولد تسيهر: ٢٦٨.

البلاد النجدية داعياً إلى الدين الخالص وتصفيته من شوائب الشرك المتراكمة، واهتم بتصحيح تصور الناس نحو العقيدة، وتثبيت قواعدها، وتجريدها من الشوائب التي أدخلت عليها، حتى ظُنَّ أنها من الدين.

فقد أمر النبي ﷺ بهدم بَنيّة (كعبة) لأهل الطائف على اللاّت [مقام]، ونهى عن محاكاة أهل الجاهلية الذين كانوا يتخذون شجرة تسمى «ذات أنواط» يعلقون بها سلاحهم، ويعكفون حولها ويعظمونها، وأمر عمر بقطع شجرة بيعة الرضوان عندما رأى الناس يأتونها ويصلون عندها، وقال عمر لكعب الأحبار الذي خلع نعليه، ولمس برجليه الصخرة عند فتح بيت المقدس: «ضاهيت والله اليهود يا كعب»[1].

وقال النبي ﷺ: «قاتل الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2] وقال ابن عباس: «لعن رسول الله ﷺ زائرات

---

(١) جوامع السيرة لابن حزم: ص٢٣٨، زعماء الإصلاح: ص١٦.
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠) (٢٠).

القبـور، والمتخـذين عليهـا المساجد والسرج»[1] وقال جابر: «نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه»[2].

وأمـر النبي عليّاً أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه[3]، وقال عليه الصـلاة والسـلام: «لا تُشـد الـرحـال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[4].

وكان ابن عبد الوهاب يحذر من المغالاة في تعظيم النبي ﷺ مستشهداً بقول أنس: «إن أناساً قالوا: يا رسول الله يا خيرنا

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٩، وأبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي ٤/ ٩٤-٩٥، وحسنه الترمذي مع أنَّ فيه أبا صالح باذام وهو ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٠) (٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) (٥١١) و(٥١٢) من حديث أبي هريرة.

وأخرجه البخاري (١١٩٧) و(١٩٩٥) ضمن حديث عن أبي سعيد الخدري.

وابن خيرنا . . وسيدنا وابن سيدنا، فقال: أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»[1] وبحديث البخاري[2]: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم».

ومن المعروف أن المسؤولية الفردية أساس عظيم، ومفخرة من مفاخر الإسلام:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وإذا كان هذا هو الأصل في كون الأعمال الصالحة هي أعمال شخصية لكل إنسان، فإن هناك أيضاً استثناءات رحمة من الله بعباده، كالحج بالنيابة عن الغير عاجزاً أو ميتاً، والشفاعة

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٥٣ و٢٤١ و٢٤٩، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٩).

(٢) رقم (٣٤٤٥).

للميت بالصلاة عليه والدعاء له.

ويذكر الجبرتي في تاريخه أن هدم القباب المبنية على القبور (وهو ما أثار ولا يزال حواراً واسعاً بين المسلمين) قد تم: «بعد المناظرة مع علماء تلك الناحية، وإقامة الحجة عليهم بالأدلة القاطعة التي لا تقبل التأويل من الكتاب والسُنّة، وإذعانهم لذلك» فأتباع ابن عبدالوهاب لم يهدموا القباب في المدينة وغيرها بقوة السيف، ولا بسطوة الفتح، ولكن بعد محاورة تستند إلى الكتاب والسُنّة وبعد الاعتماد على الأدلة القاطعة بأن الإسلام قد جاء «لتوحيد الألوهية وإنهاء الشرك».

ويثبت الجبرتي أن «الوهابيين» في ١٥ رجب سنة ١٢٢٠هـ لم يحدثوا حدثاً في المدينة غير منع المنكرات وشرب الدخان في الأسواق، وهدم القباب ما عدا قبة الرسول ﷺ، خلافاً لما يزعمه بروكلمان من أنهم خربوا القباب الضخمة التي تظلل قبر الرسول عليه السلام، وجردوها من جميع النفائس التي تزينها[1].

(١) انظر مقال جلال الكشك في مجلة الحوادث، عدد ١١٧٤، ص٦٩

ويبين الجبرتي منذ قرن ونصف مصير هذه النفائس، بأنه تمّ إنفاق المال والمجوهرات المرصودة في الحجرة النبوية لصالح المسلمين، كما يذكر الشيخ عبداللطيف آل الشيخ أن صرف ذلك المال في أهل المدينة ومصالح الحرم وجهاد الأعداء كان بإفتاء أهل المدينة من أتباع المذاهب الأربعة.

كما يذكر الجبرتي أن الوهابيين لم يمنعوا الحج، بل منعوا البِدع التي كانت تصاحب المحمل المصري ـ الشامي[1].

وخلاصة القول: أن آراء الإمام محمد بن عبدالوهاب السابقة هي شرعية المبدأ والهدف، والنزعة والمصير، ولكن لم تسلم هذه الدعوة كأي دعوة إصلاحية من قادح ومادح، ومن مؤيد ومعارض، ويظل تقويم الأعمال والاتجاهات ومبادىء المصلحين هو للإسلام الباقي الخالد، الممثل في القرآن والسُنّة أولاً وأخيراً.

شهر أيار (مايو) ١٩٧٩، تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان: ٢٢/٤.

(١) مقال الكشك، السابق: ٦٩-٧١.

وحينئذ تتبدد تخرصات وأقاويل المغرضين، ولا سيما إذا وقفت السلطة في وجه أي حركة إصلاحية، وشنت عليها حرباً دعائية، ومسلحة أحياناً ضدها، كما فعلت السلطة العثمانية، ووالي مصر محمد علي وأبناؤه طوسون وإبراهيم وغيرهم من السلاطين بالتحريض على ضرب «الوهابيين» دفاعاً عن مصالحهم وليس عن الإسلام أو المسلمين، كما بينا.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله.

٣ ـ الرسالة الثالثة

أثر التجديد في الجزائر

بقلم

د. عبد الحليم عويس

المستشار بالجامعة الأزهرية

القاهرة ـ مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

من الحقائق المقررة من (قضايا الحضارة) أنها لا تخضع لذلك الوضع الحاسم الذي تخضع له قضايا التاريخ.

فبينما يستطيع المؤرخ ـ بأدوات البحث المعتمدة ـ أن يصل إلى تحديد قريب من الصحة لكل واقعة تاريخية يدور بحثه حولها.. فإن الباحث في الحضارة لا يستطيع أن يصل إلى هذا الحد الواضح، وهو يعالج القضايا الحضارية؛ ولاسيما إذا كان الأمر متعلقاً بعلاقة (التأثير والتأثر) التي تربط موجة فكرية سابقة، بموجة أخرى لاحقة.

وحسبُ (عالِم الحضارة) في هذا المجال أن يرصد السمات التي تميزت بها كل موجة؛ ثم يبحث ـ مستعيناً بالتاريخ ـ عن المعابر التي التقت عندها الموجتان، بحيث يقنع

قارئـه بخلو استنتـاجاته من التكلف والتعسف ويضع يده على الخيوط المرئية والمستنتجة التي جعلته يقرر أن هناك تأثيراً وتأثراً بين السابق واللاحق.

حقائق تاريخية ثلاث:

وفي مقـدمة بحثنا هذا نستطيع أن نضع أيدينا على ثلاث **حقائق تاريخية مؤكدة:**

أولاها: تظهر على الطرف الأول «المؤثر» وهي أن مصلحاً مجـدّداً قد ظهـر في جزيرة العـرب، على فتـرة من الجـاهلية المستـأنفـة. ولـد بالعيينة شمال غربي الرياض سنة ١١١٥هـ (١٧٠٣م) واسمه محمد، واسم أبيه عبدالوهاب، مجمع على مزاياه المـوروثة والمكتسبة، وعلى خلائقه الفاضلة[1]، «وكان محمـد هذا سبـاقـاً في عقله وفي جسمـه، حاد المـزاج، فقد استـظهـر القـرآن قبـل بلوغه العشر، وبلغ الاحتلام قبل اتمام

(١) أحمد عبدالغفور العطار: محمد بن عبدالوهاب ط٣ ـ مكتبة العرفان بيروت ص ٣١.

الاثنتي عشرة سنة»[1]. . !!

وقد عاش محمد بن عبدالوهاب ـ موضوع الحقيقة التاريخية الأولى ـ حياة حافلة بالتعلم والارتحال في طلب العلم، والجهاد في سبيل ما اهتدى إليه من حقائق رأى فيها صلاح حال الأمة الإسلامية، وسبيل عودتها إلى مكانتها التاريخية. . حتى وافته منيته سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) بعد أن شهد آثار إصلاحه في الجزيرة العربية، وبعد أن انتقل البدو ـ أمام عينه ـ من حياة الجاهلية إلى حياة الحاضرة، وأنارت نجد والجزيرة العربية بدعوته العظيمة[2].

والحقيقة التاريخية الثانية: حقيقة تظهر على الطرف الآخر «جانب التأثر»، ونحن نرى هذه الحقيقة في تلك الموجات الإصلاحية الإسلامية التي بزغت في أرض الجزائر؛ والتي بدأت تأخذ صفة تيار عام بعد أن كانت جهوداً فردية، وقد ظل

---

(١) أحمد بن حجر الطامي: الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ ١٣٩٥ ص ١٥.

(٢) أحمد عبدالغفور العطار: محمد بن عبدالوهاب ١٠١.

هذا التيار العام ينمو حتى أصبح يمثل أقوى تيار في الجزائر، بحيث تمكن هذا التيار (السلفي) الذي كان مجرد جهود فردية من أن يتـغلب على كل التيارات المنحــرفــة، ويتغلب على الاستعمـار الفرنسي نفسه، ويعود بالجزائر إلى الإسلام عقيدة وإلى العروبة لغة. . . . وليس هذا التيار سوى (جمعية العلماء المسلمين الجــزائــريين) صاحبـة الفضـل الأكبـر في تحقيق استقلال الجزائر [بعد الله تعالىٰ].

وتــأتي **الحقيقـة الثـالثـة**: وهي حقيقـة تتعلق بالـظروف المتشـابهة في النواحي العقدية والاجتماعية والفكرية في كلتا المنطقتين. . فبينما كانت الجزيرة العربية ـ خلال القرن الذي ظهـرت فيه حركة الإمام ابن عبدالوهاب، كما يحدثنا مؤرخونا الثقات كابن بشر وابن غنام والألوسي مرتعاً للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصحيحة. . ويُحج فيها إلى القبور، ويُطلب من الموتى الحاجات، ويستغاث بهم لدفع الكـروب[1]. . وفي المقـابـل. . كانت الجـزائر خلال العصر

(١) انظر الشيخ محمد بن عبدالوهاب: أحمد أبو طامي ص ١٩ (نقلاً عنه).

الـذي بدأت تظهـر فيه اشعاعات حركة الإمام ابن عبدالوهاب خارج الجـزيرة، أي خلال القـرنين الثالث عشر والرابع عشر، تعج بكثير من الخرافات وصور الوثنية وسيطرة الصوفية والمبتدعة على أرضها.

إنهـا ظروف متشابهة بين أرض الجزيرة في آسيا، وأرض الجـزائـر في أفـريقيا. . . . وكمـا كانت صور الوثنية والتخلف والـظلام سبباً في كثير من مراحـل التـاريخ. . لظهور دعوات التنوير والتوحيد؛ كذلك كانت هذه الظروف داعية لكي تتلقف الأرض العـطشى في الجـزائـر دعوة الإصلاح التي جاءتها من أرض الجزيرة العربية. لتردها إلى الكتاب والسنة مرة ثانية، كما حملتها إليها أول مرة.

* * *

أجل. . تلك حقائق تاريخية ثلاث لا يكاد المؤرخ يصل إلى درجـة من الشـك فيها؛ لكن هذه الحقائق ـ مع ذلك ـ لا تكفي (الباحث الحضاري) الذي يناط به بيان مدى الإشعاعات الـظاهـرة (المؤثـرة) في الموجة (المتأثرة)، لكي يصدر حكمه

بوجود علاقة (التأثير والتأثر)؛ بل إنه مضطر أن ينهج منهج (عالِم الاجتماع) الذي يجمع مفردات الظاهرة من حالات التوافق والتقارب المتناثرة هنا وهناك ليصدر ـ بعدها ـ رأيه . . راجياً في النهاية أن تكون النتائج التي انتهى إليها أقرب إلى اليقين. وهذا ما نأمله بإذن الله.

عصر الإصلاح في الجزيرة العربية:

كان القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر [الميلادي] هو بداية عصر الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وفي هذا القرن كان العالم الإسلامي يسير على النهج نفسه الذي سار عليه في سابقة من انفصال عن الحقيقة الشرعية، ومن سيطرة مفاهيم [خاطئة] على العقل المسلم، ومن تمزق سياسي وفوضى اقتصادية وهبوط اجتماعي. بحيث أصبح ـ كما يسميه المفكر الجزائري مالك بن نبي ـ في حالة (القابلية للاستعمار)[1]. . . . إنها الحالة التي يتوافر فيها مواد

(١) انظر شروط النهضة فصل (معامل القابلية للاستعمار) ص ٢٢٩

خام بشرية تمتاز (بالبطالة) و(بالجهل) و(بالانحطاط الخلقي) المتولد من انحطاطين: أحدهما: فكري، والآخر نفسي...

ويصور هذه الحالة أبلغ تصوير الكاتب الأمريكي (لثروب ستودارد) فيقول: «في القرن الثامن عشر كان العالم المسلم قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق دركه؛ فاربد جوُّه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي واستغرقت الأمم المسلمة في اتباع الأهواء والشهوات وماتت الفضيلة في الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال[1]..

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء، فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عدد

الطبعة الثالثة.

(١) حاضر العالم الإسلامي جـ١ ص ٢٥٩.

الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغِّبون في الحج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يُشرب الخمر والأفيون في كل مكان، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء، ونال مكة والمدينة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضرباً من المستهزئات. وعلى الجملة بُذِّل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان [يدعى] الإسلام لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان[1]».

ونتيجة لهذه الحالة سيطر الضعف الحضاري والتفكك السياسي، بحيث لم ينته القرن إلا وكان الاستعمار يبحر بسفنه

---

(١) المرجع السابق ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

في طريقه إلى تلك المنطقة التي توافر لديها ([مرض] القابلية للاستعمار).

كانت روسيا تتقدم إلى العالم المسلم من أركان مختلفة، فقد زحفت على بلاد فارس، التي كانت مقسمة إلى أحزاب هي (الأفشار والزند والقاجار)، كما زحفت روسيا أيضاً على بعض أملاك الدولة العثمانية في أوروبا، ولم يقتصر زحفها على هذين الركنين؛ بل انها أخضعت سهوب (الشركس) فعزلت خانيات التركستان المسلمة وما وراء النهر، وخراسان الأوزبكية، واحتلت بلاد الكرج (جورجيا) متقدمة إلى ما وراء القوقاز.

واستولت على جميع أملاك الترك شرق الدنيستر[1].

أما فرنسا وبريطانيا فقد بدءا في هذا القرن سباقهما لتقسيم العالم المسلم الذي أصبح يمثل (الرجل المريض)..

وكانت الشرارة الأولى هي: الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م. وهجوم نابليون بونابرت ـ قائد الحملة ـ على

---

(١) أطلس العالم الإسلامي ص ٢٨.

الشام سنة ١٧٩٩م واستيلائه على يافا!.

دعوة الشيخ ابن عبدالوهاب وركائزها:

في هذه الظروف ظهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، فكان أول مصلح خلال هذا العصر يضع يده على مواطن الداء الحقيقي، الذي يتمثل في طبيعة ما آل إليه بناء الأمة الداخلي فكرياً وعقدياً ونفسياً.. فبينما كان العالم المسلم مستغرقاً في هجعته ومدلجاً في ظلمته على النحو الذي صوره «ستودارد».. إذ بصوت ابن عبدالوهاب يدوي موقظاً النائمين، داعياً المسلمين إلى الرجوع إلى سواء السبيل.. فلم تلبث دعوته أن اتقدت واشتعلت واندلعت ألسنتها في كل زاوية من زوايا العالم المسلم، ثم أخذ يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة مجد الإسلام القديم والعز التليد، فتبدت تباشير صبح الإصلاح، ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الإسلام[1].. **ولم تكن دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب إلا دعوة إلى العودة الصادقة الواعية إلى الحقيقة الشرعية في**

---

(١) ستودارد: المرجع السابق ص ٢٦٠.

مصدريها الثابتين الخالدين : الكتاب، والسنة الشريفة، ودعوة ـ في نفس الوقت ـ إلى التخلص مما خلفته قرون التخلف من شوائب أصابت بناء الإنسان المسلم الداخلي . . فأصبح مسلماً (مشركاً) (يقرأ القرآن ويؤمن بالخرافات) (ويصلي لله، ويتقرب لعبيده) إلى غير ذلك من الشوائب التي كانت سبباً في انحطاط المسلمين.

وبالتالي، وانطلاقاً من نواحي هذا الخلل، ركز محمد بن عبدالوهاب اهتماماته الإصلاحية على النواحي التالية:

أولاً: تصحيح العقيدة الإيمانية في فكر المسلمين وتطهيرها من مظاهر الشرك التي علقت بها، وبإيجاز: إعادة المسلمين إلى عقيدة (التوحيد) كما وردت في الكتاب والسنة دون تشبيه أو تجسيم أو تأويل أو تعطيل والتوحيد لا يكون كذلك ـ في الإسلام ـ إلا بتوحيد الربوبية، فلا خالق ولا رازق إلا الله، وبتوحيد الألوهية، فلا دعاء ولا نذر ولا استعانة إلا بالله، وبتوحيد الأسماء والصفات، فيوصف الله بما وصف به نفسه، واعتقاد أن الله (ليس كمثله شيء). وقد بلغ من عناية الشيخ بالعقيدة حداً كبيراً لدرجة

أنه قام بتتبع مجالات تصحيحها، ومقاومة صور الإشراك في كل كتاباته وخطبه ورسائله. وكانت العقيدة هي المحور الذي تدور حوله كل اهتماماته، وذلك بالإضافة إلى الكتب والرسائل التي تكاد تفرد لقضية التوحيد ككتابه (التوحيد) الذي جاء في ستة وستين باباً.. سد فيها الشيخ كل منافذ الشرك. ورسالة (كشف الشبهات)، ورسالة (ثلاثة الأصول) ورسالة (القواعد الأربع) وكتاب (فضل الإسلام) وكتاب (أصول الإيمان) ومجموعة رسائله في التوحيد والإيمان التي بلغت ثلاث عشرة رسالة، وكتاب الكبائر، ورسائله الاحدى وخمسين التي وردت في تاريخ الشيخ ابن غنام الأحسائي، وفي الدرر السنية في الأجوبة النجدية.... والتي تناولت جوانب خمسة تتصل كلها بالعقيدة، كبيان أنواع التوحيد، وبيان معنى لا إله إلا الله، وما يناقضها من الشرك، والأشياء التي يكفر مرتكبها [1].

---

(١) انظر هذه الرسائل في (القسم الخاص للرسائل الشخصية) من مؤلفات محمد بن عبدالوهاب ـ طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وانظر كذلك بقية أعمال الشيخ في هذه الطبعة.

ثانياً: تصحيح عقيدة المسلمين ـ أيضاً ـ في مجالات التوسل والشفاعة والاستغاثة.

ثالثاً: رفض الانحرافات التي أقحمت على الإسلام بتأثير جماعة (الصوفية) التي كانت من أقوى أسباب تخلف العالم المسلم.

رابعاً: **انكار [تعظيم] القبور والبناء عليها أو اللجوء إلى الموتى ـ مهما كان قدرهم ـ في تحقيق أمر. . لأن هذا وثنية تدخل في باب الشرك بالله. أما زيارة القبور دون شد الرحال إلى مقبرة خاصة. . بهدف التذكر والاعتبار والدعاء للميت والترحم عليه فلا شيء فيه، [بل هو من السّنّة].**

خامساً: **مقاومة الخرافات والبدع بكل أشكالها، وأغلبها مما انتشر أيام الفاطميين في المغرب (٢٩٨ ـ ٣٦١هـ) ومصر (٣٦١ ـ ٥٦٧هـ)، ومن رواسب عصور التخلف. ومن هذه البدع التي أنكرها الشيخ: بدعة الاحتفال بالمولد النبوي، وبدعة المحمل، وغيرها من البدع التي روَّجها**

الطرقية والشيعة.

سادساً: فتح باب الاجتهاد ـ عند توافر وسائله ـ وعدم التعصب لمذهب معين، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة.

سابعاً: ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإحياء فريضة الجهاد التي خمدت في نفوس المسلمين.

* * *

تلك هي أبـرز الجـوانب التي ركز الشيخ ابن عبدالوهاب عليها.. باعتبارها الأصول التي تحيا بحياتها بقية أركان الإسلام وآدابه وفروعه.

وقد حرصنا على ذكرها لتكون الأصل الذي يُقارن به اتجاه الحركة الدينيّة الإصلاحية في الجزائر.

جذور دعوة الإصلاح الدّيني في الجزائر:

ذكـرنـا أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لا تزيد عن

كونهـا دعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء في القرآن والسنة النبوية الصحيحة، فهي بهذا الإطار ليست بدْعاً في كل حركات الإصـلاح؛ بل هي تلميذة ومتبعة لحركات الإصلاح السابقة، كحـركـة الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ) وحركة شيخ الإســلام أحمــد بن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) ومحمـد بن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ).

وبـالتـالي: فإن لنـا أن نستنتـج أن كل مورثـات الإسلام الصحيح الـذي يطلق عليه ـ عادة ـ (الاتجاه السلفي) ـ والتي كان لها بالتأكيد ـ وجود كبير في الجزائر منذ دخل جيش التابعين الذي فتحها بقيادة أبي المهاجر دينار (٥٥ ـ ٦٣هـ).

. . . هذه المورثات النبوية الصحيحة قامت بدور كبير في التمهيد لانتشار **دعوة الإصلاح الديني في الجزائر خلال القرن الـرابـع عشـر للهجـرة، والتي كان رائـدها الأول في التاريخ الإسلامي الحديث هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب**.

ويلخص أحـد الكتاب الجزائريين المعاصرين ـ صادقاً ـ حقيقة (الدعوة السلفية) فيقول: إنها لا تزيد عن كونها التطبيق

الصحيح للحديث النبوي الشريف الذي ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام ـ في خطبة الوداع ـ حين قال: «**تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنَّة رسوله**»[1].

ويرى هذا الكاتب الجزائري: أن (السلفية) بهذا المعنى ذات امتداد أصيل في الجزائر، وأنها ما كان لها أن تظهر حركة مستقلة تبدو وكأنها (مذهب فقهي) إلا لأن الناس ابتعدوا عن حقيقة الإسلام، بعد أن ظهرت مختلف المذاهب البدعية التي تنتمي إلى ملل ونحل بعيدة عن الإسلام، والتي كان من بينها مذهب التصوف، الذي أسرف بعض أئمته وتغالوا في الدعوة إلى التحرر من [التعاليم] وإسقاط التكاليف. وزاد الأمر تعكراً عندما ظهرت لكثير من أئمة التصوف طرق، أقبل عليها كثير من العوام؛ فعندئذ ظهر رد فعل الفقهاء الذين ضاقوا ذرعاً [بهذا الانحراف] وانضم إليهم المحدِّثون... فاتهموا المتصوفة

---

(١) المهدي البوعبدلي مقال (عبدالرحمن الأخضري وأطوار السلفية في الجزائر) بمجلة الأصالة الجزائرية عدد صفر ١٣٩٨هـ (برقم ٥٣).

بالمروق عن الدين، وبأن تعاليمهم مستمدة من مذاهب غير [شرعية] [1].

مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لكن السؤال الـذي يفرض نفسه ـ عند هذه النقطة، على الـرغم من كل التـأثيرات العامة والأساسية التي ذكرناها ـ هو: كيف وصلت السلفية الإصـلاحية التي قامت حركتهـا الأخيرة على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: الشيخ عبدالحميد بن باديس؟ والحقيقة أن كثيراً من تلامذة جمعية العلماء الجزائريين يسجلون انتماء الشيخ ابن باديس إلى مدرسـة الإمـام محمـد بن عبـدالوهاب بشيء من التلقائية، وكأنه أمر مقرر لا جدال فيه [2] والأمر نفسه بالنسبة للمؤرخين [3].

---

(١) المكان السابق.

(٢) انظر كتاب د. عمار طالبي: (ابن باديس حياته وتراثه)، وكتاب د. تركي رابح عن ابن باديس، وغيرهما.

(٣) راجع نقولنا السابقة من ستودارد وارنولد.

لكننـــا مع ذلـك نؤثـر تتبـع وصـول السلفية إلى الجمعية وروادهـا عبـر جداولها الخاصة إلى جانب الروافد العامة التي تحدثنا عنها.

والمعروف أن الشيخ عبدالحميد بن باديس قد تأثر أول ما تأثر بالفكرة السلفية عن طريق اساتذته في جامعة الزيتونة بتونس وذلـك بعـد سفـره إلى تونس سنة ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) لإتمام دراسته في جامع الزيتونة.

وأبز من أخذ عنهم الفكرة السلفية من استاذة الزيتونة اثنان همـا: الشيخ محمد النخلي القيرواني المتوفىٰ سنة ١٩٢٤م، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور. وقد أشار ابن باديس نفسه إلى تأثير هذين الشخصين عليه في مقال كتبه في جريدة البصائر عام ١٩٣٦م فقـال: «عـرفت الأستـاذ الطاهر بن عاشور في جامع الـزيتـونـة. وهـو ثاني الـرجلين اللذين يشار إليهما بالروح في العلم، والتحقيق في النـــظر، والسمـو والاتسـاع في التفكير؛ أولهمـا العـلامة الأستاذ محمد النخلي القيراوني ـ رحمه الله ـ وثانيهما: الأستاذ شيخنا الطاهر بن عاشور.

وكـانا كما يشار إليهما بالصفات التي ذكرناها يشار إليهما بالضلال والبدعة، وما هو أكثر من ذلك لأنهما كان يحبذان آراء الأستاذ محمد عبده في الإصلاح، ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقـرأ عليهمـا، وكـان هذا ممـا استـطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما. وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة، واتصلت بهمـا حتى حصلت على الشهـادة «العـالمية» ووجدت لنفسي الاختيار فاتصلت بهما عامين كاملين كان لهما في حياتي أعظم الأثر. على أن الأستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة فكان ذلك تمهيداً لاتصالي الوثيق بالأستاذ النخلي»[1] .

أمـا الـرافـد السلفي الثـاني الـذي أثر في مؤسس جمعية العلماء فيتمثل في تلك السفرة الطويلة إلى المشرق العربي، والتي أدى فيهـا «فريضة الحج» واجتمع خلالها بعدد كبير من رجـالات الفكـر والإصلاح في العالم العربي من بينهم الشيخ حمدان الونيس، شيخه السابق، والشيخ حسن الهندي العالم

---

(١) البصائر، عدد (١٦) السّنة الأولى.

السلفي المجاور الذي نصحه بوجوب العودة إلى الجزائر لاحتياجها الشديد إلى علمه وفكره، والشيخ (البشير الإبراهيمي) الذي تعرف عليه ابن باديس لأول مرة في حياته في المدينة [النبوية] حيث كان قد هاجر إليها في حدود عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ) ومنذ ذلك الحين ارتبط بصداقة متينة كانت خيراً وبركة على الجزائر والحركة الإصلاحية السلفية التي برزت فيما بعد في حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[1] أي أنه هنا في قاعدة السلفية الأولى في الماضي والحاضر ـ في المدينة [النبوية] ـ تم عقد النية والاتفاق على إقامة الحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر بين الشيخين البشير الإبراهيمي، وابن باديس.

مبادىء السلفية وركائز جمعية العلماء:

لعله من الحقائق المقررة أن التشابه ـ بل الاتفاق ـ في الأسس والمبادىء بين حركتين من حركات البعث والإحياء ـ إنما يقوم دليلاً قوياً على تأثر اللاحقة بالسابقة.

---

(١) د. تركي رابح: الأصالة ٢٤.

وقـد ذكرنا في صدر بحثنا خلاصة أهم ركائز دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لهذا الغرض.

وفي هذا المقام نورد أهم الركائز التي قامت عليها الحركة الإصلاحية الجزائرية التي عرفت باسم جمعية العلماء، والتي كان لهـا الفضـل في تحرير الجزائر من الفرنسيين وعودتها إلى الإسلام واللغة العربية.

ومن دراستنـا لجمعية العلماء فكراً وعملاً ـ كما تدل على ذلك مصادرها ـ نستطيع أن نلخص الركائز التي قامت عليها في النقاط التالية:

أولاً: إصلاح عقيدة الجزائريين.

فقـد كانت جمعية العلمـاء تركـز عملها بصفة عامة على مقـاومـة الخـرافات والبدع التي شوهت عقيدة المسلمين[1]،

---

(١) انظر كتاب: الشيخ عبدالحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم ٢٧٢/٢٧٣ د. رابح تركي.

وتطهير عقيدتهم من مظاهر الشرك؛ سواء الجليّ منها أو الخفي.

وقد كان لإمام جمعية العلماء الشيخ ابن باديس دروس يمليها على تلامذته في (جامعة قسنطينة) تحت عنوان (العقائد الإسلامية) وكان يتبع في الاستدلال على وجود الله ووحدانيته وصفاته منهج القرآن الكريم في الاستدلال لا منهج علماء الكلام المتأثرين بالأساليب الفلسفية والإغريقية العقلية. أو أساليب الفقهاء الذين يستدلون بكلام أئمتهم أو قدماء أتباعهم بدل الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله[1].

وقد نشرت أجزاء هامة من تلك الدروس بعد وفاة ابن باديس تحت عنوان «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية» وهي تعطينا صورة واضحة عن طريقة جمعية العلماء في إصلاح العقيدة على النهج السلفي. وابن باديس يصف طريقته تلك بأنها «الطريقة المثلى في الاستدلال على وجود الله وصفاته فما يرجع إلى الغيبيات لا [يعرف] إلا بآية

(١) السابق ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

قرآنية محكمة»[1] .

ويعلق أحد الكتاب الجزائريين على منهج ابن باديس في إصلاح عقيدة الجزائريين فيكشف النقاب عن حقيقة تأثره فيها بطريقة الشيخ محمد بن عبدالوهاب . . يقول:

هنـاك ملاحـظة ينبغي الإشـارة إليها قبل المضي في بيان ملامح فلسفة ابن باديس، وهي أن الإمام عبدالحميد بن باديس عالم مسلم يعمل في الدائرة [الشرعية] . . . وهو كذلك مصلح سائـر على نهـج المصلحين السلفيين من أتبـاع المـدرسـة الإصـلاحية السلفية التي ظهرت في الشرق المسلم في القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) وكانت تنادي بضرورة العـودة بالإسـلام إلى منابعه الأولى: الكتاب والسنة بعيداً عن بدع المبتدعين، وخرافات المنحرفين»[2].

وفي رأي ابن باديس ـ وهو رأي الإمام ابن عبدالوهاب ـ أن

---

(١) انظر مقدمة العقائد الإسلامية لابن باديس جمع ونشر محمد صالح رمضان.

(٢) تركي رابح: المرجع السابق ص ٢٠٠ .

العقيدة الصحيحة قاعدة الإصلاح في المجتمع، وهو ينادي بأن حالة التدهور العام التي وصل إليها المسلمون في القرون الأخيرة إنما تعود إلى تدهور العقيدة لدى الفرد المسلم وتسلّل الشرك الخفي إليها، وهو يعتبر ذلك «قاعدة الإصلاح» ويقول: «فلنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات»[1].

ثانياً: مقاومة الصوفية المبتدعة:

ترتبط مقاومة الصوفية والمبتدعة بإصلاح العقيدة إرتباطاً وثيقاً، هكذا كان المنهج بالنسبة لحركة الإمام ابن عبدالوهاب أو بالنسبة لحركة جمعية العلماء الجزائريين.

فما نكب الأمة في عقيدتها التي هي مبعث تميُّزها وفخرها على الملل الأخرى إلا هؤلاء المتصوفة وإخوانهم من سائر المبتدعة.

وكما كان لهؤلاء الصوفية والمبتدعة موقف مشين من دعوة

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٢٣.

الإمام محمد بن عبدالوهاب كان لهم ـ كذلك ـ الموقف نفسه من جمعية العلماء الجزائريين. . . بل أنهم ارتكبوا في الجزائر خيانة عظمى أخرى ـ بعد خيانتهم لله ـ هي أنهم والوا فرنسا ووقفوا معها ضد المسلمين الجزائريين دعاة الإصلاح والتحرير. فلا بد أن تأخذ مقاومة هؤلاء قدراً كبيراً من جهود العلماء، وأن تصبح المعركة معهم سافرة واضحة وضوح المعركة مع المستعمر الفرنسي، ويرى الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) الرائد الثاني لجمعية العلماء ورئيسها بعد ابن باديس: أن مقاومة المبتدعة والصوفية ورجال الدين الرسميين المنافقين هي «أول يد بيضاء أسدتها الجمعية للجزائر حين قامت بتحرير العقول من الأوهام والضلالات [والبدع]، وتحرير النفوس من تأليه الأهواء والرجال، فإن تحرير النفوس والعقول هو الأساس لتحرير الأبدان وأصل له، ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلاً عبداً. . . وبذلك التحرير العقلي الذي أساسه ـ توحيد الله ـ تمكنت الجمعية من توحيد الميول المختلفة والمشارب المتنابذة والنزعات المتضاربة، وبذلك التحرير أيقظت في الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادىء، وبين

الطالح والزائف منها، وبذلك التحرير أراحت الأمة من أصنام كانت تتعبدها باسم الدين أو باسم السياسة[1] .

ويكشف الإبـراهيمي «حقيقة بعض المنافقين والمبتدعة الـذين تستخـدمهم فرنسا لأغراضها، بأسلوب يذكرنا بأسلوب الإمـام محمـد بن عبـدالوهاب. . . فيقول: «في أيام الحملة الكبرى على الحكومة (الفرنسية) ظهر (هؤلاء) بمظهر مناقض للدين، فكشفوا الستر عن حقيقتهم المستورة ووقفوا في صف الحكومة مؤيدين لها، خاذلين لدينهم وللمدافعين عن حريته، مطالبين بتأييد استعباده، عاملين بكل جهدهم على بقائه بيد حكومة مسيحية تخربه بأيديهم، وتشوه حقائقه بألسنتهم، وتلوث بيوته ومنابره بضلالتهم» .

«وقـد أخـذوا في الـزمن الأخير ببعض مظاهـر العصـر، وتسلحوا ببعض أسلحته بإملاء من الحكومة للدفاع عن الباطل، فكونوا جمعية، وأنشأوا مجلة، وجهزوا كتيبة من الكتاب ليشترك

---

(١) البشير الإبـراهيمي: عيون البصـائـر جـ١ ص ٢٦ ـ ٢٧ . نشر دار المعارف بالقاهرة.

عاقلهم وسفيههم في هذه المخـزيات، وبحكم العمومية في الجمعية، والاشتراك في المجلة، بعد ما كانوا يعملون فرادى، فيمتاز البريء منهم عن المجرم، ولو في دائرته الضيقة من أهله وجيرانـه.. دافعنـاهم ـ عنـدما ظهروا بذلك المظهر ـ بالحق فركبـوا رؤوسهم، فتسامحنا قليلاً إبقاء على حرمة «المحراب والمنبر» التي انتهكوا، فشددوا إبقاء على حرمة الخبزة، فكشفنا عن بعض الحقـائق المستورة فلجوا وخاضوا، وثاروا وخاروا، فلمـا عتوا عن أمر ربهم رميناهم بالآبدة... وهي أن الصلاة خلفهم باطلة؛ لأن إمامتهم باطلة... لأنهم جواسيس»[1].

ولم يكن الإمام عبدالحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ أقل حرباً للصوفية والمبتدعة من الشيخ الإبراهيمي؛ بل كان ـ رحمه الله ـ يتهمهم بإفساد الإسلام، وأنهم قد أخذوا أنفسهم بنسك الأعـاجم، واختـرعوا أعمالاً وأوضاعاً من عند أنفسهم، وظنوا أنهم يتقربون إلى الله زلفى على غرار المشركين قبل البعثة النبوية[2].

---

(١) عيون البصائر، ١/١٩٨.

(٢) د. تركي رابح: المرجع السابق ٢١٣.

يقـول ابن باديس: «وكمـا اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها [والصلاة] عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها وحرق البخـور عنـدهـا وصب العطور عليها، فكل هذه الإختراعات فاسدة في نفسها لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان محمد يسعاه وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور»، كما يتهم رجال الطرق الصوفية بأنهم ادعوا لأنفسهم نوعاً من الربوبية حينمـا زعمـوا للعـاملة السـاذجـة بأنهم قادرون على المنـح والعطاء، كما أنهم قادرون على المنع والحرمان، وذلك بقصد استغلالهم وابتزاز أموالهم وصرفهم عن مكافحة الاستعمار الذي يحتـل وطنهم إلى التمسـح بأعتـاب رجال الطرق الصوفية [1] الذين ابتليت بهم الجزائر في هذه الحقبة من أحقابها الطويلة.

---

(١) المكان السابق، وانظر ص ١٨٥، وانظر تفسير ابن باديس للآيات: **﴿ومن أراد الآخرة﴾**، **﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾**، **﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾**.

ثالثاً: الرجوع إلى القرآن والسنة:

يقول ابن باديس: إن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ما كانت إلا للقرآن وبالقرآن، وإن أئمة الهدى أنفسهم كانوا يدعون لاتباع الكتاب والسنة فهم دعاة اتِّباع لا ابتداع، وما دعوا إلى (التحزّب) لأنفسهم... كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام دعانا إلى اتباع سبيله في القيام بالشرائع في حياتنا العامة والخاصة، وتلك هي سنته التي كان عليها أهل القرن الأول والثاني والثالث، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم عليه الصلاة والسلام [1].

رابعاً: تحذير الناس من الأحاديث الموضوعة:

دأب مفكروا جمعية العلماء على تفنيد تلك الأحاديث والآثار الشائعة المنكرة والموضوعة التي شوهت جمال الإسلام.

فإن الإمام ابن باديس ـ رحمه الله ـ يكاد لا يذكر عبارة السنة إلا ويحددها بعبارة «الصحيحة الثابتة» وذلك تحذيراً من كل ما

---

(١) انظر تفسير ابن باديس لآية: ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه**﴾.

روي عن النبي من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ويقول في شرحه للآية ﴿**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾: لا يجوز أن نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي من الحديث الضعيف لأنه ليس لنا به علم. فإذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل قيام الليل ثم وجدنا حديثاً في فضل قيام الليل يذكر ثواباً عليه مما يرغب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه [إذا] لم يكن شديداً على وجه الترغيب، ولو لم يكن الحكم قد ثبت لما جاز الالتفات إليه وهذا هو معنى قولهم الحديث الضعيف يروىٰ في فضائل الأعمال أي: في ذكر فضائلها المرغبة فيها فقط لا في أصل ثبوتها.

فما لم يثبت بالدليل الصحيح في نفسه لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في ذكر فضائله باتفاق من أهل العلم أجمعين [1].

---

(١) الأستاذ محمد خليل: نبذة عن حياة الإمام ابن باديس، مجلة الدعوة السعودية عدد ٦٨٣.

خامساً: محاربة الجمود الفكري الذي نتج عن إقفال باب الاجتهاد، وإحياء [التفقّه في الدين]:

يقول ابن باديس: ـ رحمه الله ـ ذاكراً فضل اثنين من أساتذته [عليه]: «وإني لأذكر للأول (حمدان الونيس) وصية أوصاني بها وعهداً عهد به إليّ، وأذكر أثر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر فقد أوصاني وشدد على أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت، وأذكر للثاني (محمد النخلي) كلمة لا يقل أثرها في حياتي العلمية عن أثر تلك الوصية في حياتي العملية، وذلك أني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ضيِّق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي: (اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة

يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح) فوالله لقد فتح الله بهذه الكلمة القليلة [في] ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها» [1].

سادساً: رفض التوسل والاستغاثة [بالأموات من الأنبياء والأولياء] والاعتماد على النفس في التقرب إلى الله:

فقد كان الشيخ يؤكد في كل دروسه وكتاباته «أنه لا يجوز الاعتماد على غير ما يقوم به الإنسان من عمل صالح، ينتفع به في دنياه، ويتقرب به إلى الله في أخراه.. أما ما يتوسل به الجهلة بحقائق الإسلام، أو يضلهم به المشعوذون فلا عبرة به في نظر الإسلام الصحيح» [2].

تلك هي أهم الركائز التي قامت عليها جمعية العلماء وقد تكون هناك مبادىء أخرى.. لكنها يمكن أن تندرج تحت هذه الركائز، كما أن طريقة عرض الأسس التي قامت عليها دعوة

---

(١) المكان السابق.

(٢) الأستاذ علي مرحوم: لمحات من حياة ابن باديس: الأصالة عدد ٢٤، وعلي مرحوم من تلامذة ابن باديس وأعضاء جمعية العلماء.

جمعية العلماء الجزائريين، قد تختلف من مفكر لآخر، كذلك الأمـر بالنسبـة لدعـوة الإمـام محمد بن عبدالوهاب. . . لكن المضمون في نهاية الأمر متفق ـ تمام الإتفاق ـ في الحركتين.

وعلى سبيل المثال: فإن أحد المفكرين الجزائريين يذهب إلى أنّ دعوة الشيخ ابن باديس، التي هي دعوة الجمعية ركزت على ثلاثة أسس:

١ ـ إصلاح عقلية الجزائريين.

٢ ـ إصلاح عقيدة الجزائريين.

٣ ـ إصلاح أخلاق الجزائريين [١].

لكننـا عنـد التحليل العلمي للمضمـون، بل عند قراءتنا لتفاصيل هذه الاصلاحات نجدها لا تخرج عما ذكرناه. . وليس الخلاف إلا في أسلوب العرض.

كمـا أن من الجلي أن هذه الـركائز هي ـ تماماً ـ الركائز

---

(١) د. تركي رابح: ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر، مجلة الأصالة عدد ٢٤.

نفسها التي قامت عليها حركة الإمام محمد بن عبدالوهاب، بل إنني لأرى أن التـزام جمعية العلمـاء بهذه الركائز كان التزاماً يقترب من التزام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ويَفضُل التزام مدرسـة العروة الوثقى وربما يَفضُل مدرسة المنار ورشيد رضا أيضاً، وليس هنا مجال تفصيل ذلك.

تشابه في الموضوع والمنهج والأسلوب:

وهناك جانب آخر ـ إلى جانب الاتفاق في الركائز ـ يدلنا أيضاً على مدى توافق الحركتين، وهو جانب الاتفاق في الكتابة موضوعاً ومنهجاً وأسلوباً.

ولأن هذا المقام قد لا يتسع لنقل نصوص وفقرات كاملة من كتابات الشيخ ابن عبدالوهاب وكتابات زعماء جمعية العلماء الجـزائـريين كالشيخ عبـدالحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبـراهيمي، فنحن ـ إلى جانب الـركائز التي ذكرناها والتي توضـح الاتفـاق التـام بين الدعوتين ـ نشير إلى أنه من دواعي التأكيد على تأثر جمعية العلماء الجزائريين بدعوة الشيخ ابن عبدالوهاب أن كثيراً من كتابات الشيخ ابن باديس والشيخ

الإبـراهيمي تبـدو للقـارىء وكأنها ترجمة أمينة لبعض كتابات الشيخ ابن عبدالوهاب وتلامذته.

أما اتفاق الكتابات في الخصائص والسمات؛ فهي حقيقة لا شك فيهـا: فإن القـوة والجرأة والروح الإيمانية الواثقة غير الهيابـة التي تبـدو في كتـابات الإمام محمد بن عبدالوهاب، ولاسيما في رسائله وخطبه نجدها ـ كذلك ـ في كتابات مدرسة جمعية العلماء الجزائريين.

وإن الاعتماد على الدليل القوي المباشر الواضح المستقى من كتـاب الله وسنـة نبيه وسلوك الأئمـة، نجده خاصة تنتظم كتـابـات الإمام ابن عبدالوهاب وجمعية العلماء الجزائريين، ممـثـلة في رائــديهــا: «عـبــدالـحميد بن باديس» و«البشير الإبـراهيمي»؛ بل إن الموضوعات تبدو وكأنها تدور في فلك واحد وتعالج أوضاعاً واحدة مع أن الظروف الزمانية كانت مختلفة.

وقد يرد على الخاطر أن «الأعداء» كانوا مختلفين ـ أيضاً ـ ولاسيما أنَّ الاستعمار الفرنسي كان مسيطراً على الجزائر،

والمتوقع أن تحتل مقاومته درجة الاهتمام الأولى. . لكن الحقيقة أن مدرسة جمعية العلماء لم تقع ـ إلى حد كبير ـ في هذا الخطأ الحضاري، بل إنها أدركت أن الاستعمار إنما هو نتيجة وليس العلة أو السبب، وإنما السبب هو ما أصاب كيان المسلم في عقيدته وفكره، والمنهج هو علاج «العلة» أولاً. . . ومن هنا صرفت أكثر جهودها في مقاومة «البدع والخرافات» وفي إحياء دين الأمة ولغتها، دون أن تغفل عن مقاومة الاستعمار كذلك.

ويضاف إلى هذه الخصائص ـ سمة أخرى واضحة في كتابات الإمام محمد بن عبدالوهاب، ومدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. . . هذه السمة نستطيع أن نطلق عليها: عدم المداراة أو التكلف، بل المواجهة الصريحة بالألفاظ القوية التي لا تحتمل تأويلاً ولا لبساً. . . حتى وإن أغضب ذلك بعض الناس، الذين يريدون المداراة والتحايل منهجاً للدعوة إلى الله.

ونورد فيما يلي بعض نصوص من كتابة الشيخ ابن

عبدالوهاب، وكتابة مدرسة جمعية العلماء الجزائريين، لنستدلَّ بمقارنتها على صدق ما استنتجناه من اتفاق بين الحركتين في المنهج والموضوع والأسلوب.

يقـول الإمام محمد بن عبدالوهاب: «ولست ولله الحمد أذهب إلى مذهب صوفي أو فقيه أو متكلم أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم؛ بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وإلى سنة رسوله التي أوصى بها أول أمته وآخرهم (. . .) وغير خاف ما أحـدث النـاس في دينهم من الحـوادث وما خالفوا فيه طريق سلفهم، ووجدت المتأخرين أكثرهم قد غير وبدل» [1].

وفي رسـالتـه إلى محمد بن فارس يقول: «اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة: الأول الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له. والثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. والثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم. الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي أكمل من هديه

(١) من رسالته السابعة والثلاثين: الرسائل الشخصية، القسم الخامس.

أو أن حكم غيره أحسن من حكمه. الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به رسول الله. السادس: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه. السابع: السحر ومنه الصرف والعطف. الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين. التاسع: من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباعه، وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى. العاشر: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به» [1].

ومن رسالته إلى أهل المغرب... بعد أن ذكّرهم بعض آيات القرآن الآمرة بوجوب اتباع سبيل الله وما أنزل على رسوله ﷺ.

«إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها الإشراك بالله والتوجه إلى الموتىٰ وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات، وكذلك التقرب إليهم

---

(١) من رسالته الثانية والثلاثين: المرجع السابق.

بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصح إلا لله. وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً» [1].

ونكتفي بهذه النقول من كلام الإمام محمد بن عبدالوهاب محيلين القارىء إلى تراثه الضخم، ونذهب لنقتبس بعض النقول ـ للمقارنة ـ من تراث الشيخ عبدالحميد بن باديس إمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

يقول الشيخ ابن باديس عند شرحه [2] لقوله تعالى: ﴿**ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا**﴾ الآيات: كما أن علينا أن نتبع سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام التي جاء بها من عند الله تعالى وهي الإسلام؛ كذلك علينا أن نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علماً وعملاً

---

(١) من رسالته السابعة والعشرين: المرجع السابق.

(٢) من دروس ألقاها في الجامع الأخضر بقسنطينة بالجزائر.

في أبـواب العبـادات وأحكـام المعـاملات وفي تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة وهذه هي سنته التي كان عليها، وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرهـا بلسان المعصوم. وكما أن من عدل عن الإسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر، ومن لم يتخذ مع الـرسـول سبيل الإسـلام ينـدم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه؛ كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة إذ كل منهما قد ظلم نفسه في سبيل نجاته فالآية وإن كانت في الكـافـر والمشـرك فهي تتناول بطريقة الاعتبار أهل الأهواء والبدع.

ويقـول عنـد شرحـه لآية: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن**﴾، (سورة الإسراء آية: ١٩) يقول: من الناس من يخترع أعمالاً من عند نفسه ويتقرب بها إلى الله مثلما اخترع المشركون عبادة الأوثان بدعائها والذبح عليها والخضوع لديها وانتظار قضاء الحوائج منها، وهم يعلمون أنها مخلوقة لله مملوكة له، وإنما يعبدونها كما قالوا لتقربهم إلى الله زلفى، وكما اخترع

طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبور والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب توابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان يسعاه محمد وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور.

ويقول عند شرحه لقوله تعالى: ﴿**ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**﴾ (سورة الإسراء آية: ٣٦).

يقول: إن أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي ﷺ الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة عقيدتهم الدينية وأدلة تلك العقيدة من القرآن العظيم. إذ يجب على كل مكلف أن يكون في كل جوانب عقيدته الدينية على علم. ولن يجد العامي أدلة عقيدته سهلة قريبة إلا في الوحي فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم المسلمين عقيدتهم

إليه. أمـا الإعـراض عن أدلة القرآن والسنة والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية؛ فإنه من الهجر للوحي وتصعيب طريق العلم إلى عبادة الله وهم في أشد الحاجة إليه. وقـد كان من نتيجـة هذا ما نراه في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغي لأهـل العلم أيضاً ـ إذا أفتوا أو أرشدوا ـ أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصـل دينهم ويذيقـوهم حلاوته ويعرفوهم منزلته ويجعلوه منهم دائماً على ذكر وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس، فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إن كنتم للخير تريدون [1].

ومن الغريب ـ إلى جانب هذه النصوص التي تبين الاتفاق في الموضوع والمنهج والأسلوب بين الحركتين ـ أن أول جريدة أنشـأهـا ابن باديس كان اسمها (المنتقد) وكانت جريدة تكاد تكون متخصصة في (انتقاد) الصوفية، وقد أوقفتها فرنسا عام

(١) د. عمار الطالبي: آثار ابن باديس ٢٠١.

١٩٢٥م بعد ثمانية عشر عدداً من صدورها، فجعلتها جريدة «الشهاب» فلما قامت الجمعية رسمياً سنة (١٩٣١م) (١٣٤٩هـ) كانت أول جريدة أصدرتها هي «السنة المحمدية» سنة ١٩٣٣م (١٣٥١هـ) ثم تلتها جريدة «الشريعة المطهرة» بعد أن أغلقت فرنسا الجريدة الأولى، ثم «الصراط السوي» ثم «البصائر».

أفلا تؤكد هذه الجرائد والمجلات ـ حتى من مجرد عناوينها ـ ذلك الاتفاق في «الموضوع» على الأقل؟.

أما من ناحية المنهج والأسلوب «فنستطيع أن نلخصه في جملة واحدة: إنه «المنهج القرآني».

فإن ابن باديس كان على منهج الإمام محمد بن عبدالوهاب، يؤمن إيماناً لا حدود له بدور القرآن الكريم في تكوين الجيل المنشود على غرار الجيل الذي كونه القرآن في العصور الأولى للإسلام، يقول ابن باديس في مجلة الشهاب: «فإننا نربي ـ والحمد لله ـ تلامذتنا على القرآن ونوجه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم، وفي كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن

يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها. وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها.

أما كيفية تثقيف هذا الجيل القائد فيشرحها الشيخ الإبراهيمي بقوله: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس ـ في اجتماعنا بالمدينة [النبوية] ـ في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا [1].

وبعد:

فإني أعتقد أني قدمت بين يدي «قضية عادلة» أدلة كثيرة، قد تكون في غنى عنها لكني قدمتها خضوعاً للمنهج العلمي الذي نتعامل به مع الآخرين.

أما يقيني ـ الذي أؤمن به ـ فهو أن الحضارة المسلمة كلٌّ

---

(١) د. تركي رابح: الأصالة ٢٤.

لا يتجزأ، حتى وإن اختلفت ألوانها وظلالها. وبالتالي.. فإن موجاتها الموجبة والسالبة تتحرك وتتفاعل متبادلة التأثير، متخطية ـ في الوقت نفسه ـ كل الحواجز السياسية وكل ضغوط الواقع، وكل الأسوار المصطنعة الطارئة.

إنهـا حضارة «واحدة» تستمد من عقيدة «التوحيد» كيانها الواحد المتعدد العطاء.. وهذا ما أؤمن به!!.

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حينٍ بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد.

الفهرس

تقديم ٥

الرسالة الأولى

دعوة التوحيد والسنة للعلامة الأثري ٧

الرسالة الثانية

مجدد الدين في القرن الثاني عشر للدكتور الزحيلي ٥٣

مقدمة ٥٥

الفصل الأول : من أين استمد ابن عبد الوهاب مبادئه . ٥٩

الفصل الثاني : أصالة المبادئ التي دعا إليها ٦٩

الرسالة الثالثة

أثر التجديد في الجزائر للدكتور عويس ٩٧

توطئة ٩٩

حقائق تاريخية ثلاث ١٠٠

عصر الإصلاح في الجزيرة العربية ١٠٤

دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب ١٠٨

جذور دعوة الإصلاح الديني في الجزائر ١١٢

مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ١١٥

مبادئ السلفية وركائز جمعية العلماء ١١٨

تشابه في الموضوع والمنهج والأسلوب ١٣٢